التَّوْفِيق

تَعْرِيفُهُ وَأَسْبَابُهُ

- **اسم الكتاب:** التوفيق - تعريفه وأسبابه
- **اسم المؤلف:** أبي الحسن علي بن محمدالمطري
- **عدد الصفحات:** ١٧٦
- **المقاس:** ١٧ X ٢٤

كل الحقوق محفوظة

١٤٤٧هـ - ٢٠٢٦م

دار القمة الإسكندرية

دار الإيمان الإسكندرية

التَّوفِيق

تَعرِيفُهُ وَأَسبَابُهُ

تأليف الدكتور
أبي الحسن علي بن محمد المطري آل المقحفي
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

دار القمة
الإسكندرية

دار الإيمان
الإسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبفضله تتنزل الخيرات والمسرات والرحمات، والصلاة والسلام علىٰ سيدنا محمد خليل رب العالمين، ورضي الله عن الصحابة أجمعين وعنا معهم بعفوك وكرمك ياذا الجلال والإكرام.

أما بعد:

إن من أعظم النعم التي ينعم الله بها علىٰ عبده، نعمة التوفيق، فإنها نعمة عظيمة، لا تحصل لكلّ أحد، وإنما تحصل لمن قام بأسبابها؛ لأن العبد لا يملكها، وإنما هي بيد الله وحده؛ قال -تعالىٰ- عن عبده شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [سورة هود: ٨٨].

فينبغي للمؤمن أن يبذل أسبابها كي يكون من الموفقين، والعبد الموفق، هو الذي قام بطاعة الله وانشغل بها، وحرص عل تحصيل ما ينفعه في أمور الدين والدنيا.

۞ وأسباب التوفيق كثيرة:

نوجزها هنا كمقدمة ومدخل مختصر لمن يريد الاستفادة من هذا الموضوع المبارك:

أولها: التبرؤ من الحول والقوة؛ فإن العبد لا حول له ولا قوة إلا بالله، فإن نسي ذلك وتعلق بغير الله، أو أعجب بنفسه، فرآها أهلا للنجاح علىٰ وجه الاستقلال،

خاب وخسر في سعيه، ويخشىٰ أن يعجّل الله عقوبته، ليريه خيبته قبل موته، والعياذ بالله!.

وقد ذكر الله -تعالىٰ- في كتابه قصة قارون وما بدر منه من الاعتداد بنفسه، وأنه صاحب الفضل الأول في حصول ثروته، كما أخبر الله عنه بقوله: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [سورة القصص:٧٨] حيث نسب النعمة إلىٰ نفسه ونسي الله، فذكر الله -تعالىٰ- عاقبة هذا العجب والغرور بقوله: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾ [سورة القصص:٨١].

ومثله أيضا، صاحب الجنتين الذي قصّ الله خبره في سورة الكهف، وما أخبر الله عنه من الاغترار بما أوتي، وكانت نهاية هذا العجب والغرور ما ذكره الله بقوله: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [سورة الكهف:٤٢].

فهذه حال من أعجب بنفسه وعمله، ونسي الله، هذه هي سنّة الله فيه.

فيجب علىٰ المؤمن أن يستحضر ذلك، وأن يعلم بأنه ما من نعمة أو حسنة تحصل له، سواء كانت علما، أو منصبا، أو شهادة دراسية، أو تجارة، أو عمارة، أو قوة وجاها، فإنها من الله سبحانه، وأنه لولا الله، ما تقدم خطوة واحدة نحو النجاح.

ولا يعني ذلك ترك الأسباب؛ فإن بذل السبب في تحصيل المنافع أمر لا بد منه.

الثاني من أسباب التوفيق: الدعاء، فإنه باب عظيم لا ينبغي للمسلم أن ينساه، وذلك بأن يطلب العبد التوفيق وصلاح الشأن في أموره، ممن بيده الأمر كلّه، وهو

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. ويدخل في الدعاء، المداومة علىٰ قراءة الأوراد الصباحية والمسائية.

الثالث: التوكل علىٰ الله، والثقة به؛ فإن من توكل علىٰ الله كفاه.

الرابع: بذل أسباب الفوز بمحبة الله تعالىٰ، فإن من أحبه الله حاز علىٰ كل فضيلة ومصلحة في الدين والدنيا، ويكفي في ذلك، ما أخبر الله به في الحديث الذي يرويه النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ربّه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، أن الله لما ذكر عبده المحبوب، قال: «**فإذا أحببته، كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينّه، ولئن استعاذني، لأعيذنّه**»(١).

فمن أحبه الله فاز بهذا الفضل العظيم، وليس كلّ أحد يناله، لأن محبة الله لا تنال إلا بأسبابها، كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [سورة آل عمران: ٣١]، و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾﴾ [سورة التوبة: ٧]، والتقوىٰ -يا عبد الله- باب عظيم من أبواب التوفيق، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾﴾ [سورة الطلاق: ٤].

الخامس: الاستشارة؛ فإنها باب مهم من أبواب التوفيق، وكلّ باب تطرقه، ينبغي أن تستشير أهل المعرفة فيه، وإياك أن تعتدّ برأيك، فلا تبالي بمن يشير عليك وينصح لك! وكذلك إذا أتتك مشورة من ناصح، بخصوص عمل تريده، فاستمع إليها وإن كنت لست ملزما بالأخذ بها، ولكن لابد من سماعها؛ لأنك قد

(١) رواه البخاري (٦٥٠٢).

تحتاجها، خصوصا الشباب، فإن كثيرا منهم لا يبالون بما يسمعونه من مشورة ونصائح ذوي الخبرة والمعرفة، وكذلك لا يهتمون بنصح وتوجيه آبائهم لهم، فيما فيه مصلحتهم، فيقعون كثيرا في الحرج.

والشابّ الموفّق، هو الذي يجمع بين معرفته وعلمه، وبين خبرة غيره ممّن هم أكبر سنا وأكثر تجربة.

وقد أمر الله -تعالىٰ- نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالاستشارة فقال: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٩].

ومن أسباب التوفيق، الحرص علىٰ صلاة الاستخارة، فإنها مهمة جدا، ويكفي في ذلك أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كان يعلّم الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الاستخارة في الأمور كلها، كما يعلّمهم السورة من القرآن؛ لأهميتها في حياة المسلم، وما ندم من استخار أرحم الراحمين، وخير الرازقين، واستشار المؤمنين الناصحين، فِعباده المؤمنين: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [سورة الشورى: ٣٨].

اللهم رحمتك نرجو، فلا تكلنا إلىٰ أنفسنا طرفة عين، وأصلح لنا شأننا كله، لا إله إلا أنت، اللهم وفقنا لما يرضيك عنا، وجنبنا ما يسخطك علينا.

كتبه: أبو الحسن علي بن محمد المطري حفظه الله ورعاه

فجر يوم السبت ٧/ شوال/ ١٤٤٦.

التوفيق التعريف والأسباب

التوفيق: يدور حول إلهام الخير، وتيسيره؛ جاء في لسان العرب: (ووفقه الله سبحانه للخير: ألهمه وهو من التوفيق)(١)، وجاء في المعجم الوسيط: ("التوفيق" من الله للعبد سد طريق الشر وتسهيل طريق الخير). ا.هـ(٢).

وقد يكون القصد بالتوفيق أعم من ذلك أو بما يشمل التوفيق لخيري الدنيا والآخرة.

وطريق التوفيق في الدارين بينه الله في القرآن بيانا شافيا؛ فقال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [سورة النحل:٩٧].

قال ابن كثير: (هذا وعد من الله تعالىٰ لمن عمل صالحا ـ وهو العمل المتابع لكتاب الله تعالىٰ وسنة نبيه من ذكر أو أنثىٰ من بني آدم، وقلبه مؤمن بالله ورسوله، وإن هذا العمل المأمور به مشروع من عند الله ـ بأن يحييه الله حياة طيبة في الدنيا، وأن يجزيه بأحسن ما عمله في الدار الآخرة.

(١) لسان العرب (١٠/ ٣٨٣).

(٢) المعجم الوسيط (٢/ ١٠٤٧).

والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت، وقد روي عن ابن عباس وجماعة أنهم فسروها بالرزق الحلال الطيب.

وعن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه فسرها بالقناعة، وكذا قال ابن عباس، وعكرمة، ووهب بن منبه، وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أنها السعادة.

وقال الحسن، ومجاهد، وقتادة: لا يطيب لأحد حياة إلا في الجنة.

وقال الضحاك: هي الرزق الحلال والعبادة في الدنيا، وقال الضحاك أيضا: هي العمل بالطاعة والانشراح بها، والصحيح أن الحياة الطيبة تشمل هذا كله). ا.هـ(١).

فأساس التوفيق عمل الصالحات، ويعين العبد علىٰ ذلك التضرع، والافتقار إلىٰ الله، والاستعانة به علىٰ طاعته؛ كما علمنا سبحانه في قوله تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [سورة الفاتحة:٥] ومما ينفع في هذا المقام الدعاء بوصية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمعاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين قال: «**أوصيك يا معاذ لا تدعن في دبر كل صلاة تقول: اللهم أعني علىٰ ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك**»(٢).

(١) انظر تفسير ابن كثير (٤/ ٥١٦) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٢/ ٤٤١).

(٢) رواه أبو داود (١٥٢٢) وأحمد (٢٢١٣٦) والنسائي في الكبرىٰ (٩٨٥٧) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٩٦٩ - ٣٠٦٣)

التوفيق بيد الله وحده

توفيق الله عَزَّوَجَلَّ لا غِنَىٰ للعبد عنه، لا في الدنيا ولا في الآخرة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢١﴾ [سورة النور:٢١].

فَمَنْ وَفَّقَهُ الله لتزكية نَفْسِه فَقَدْ أفلح وفاز، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ١٤﴾ [سورة الأعلى:١٤] وأعلىٰ مراتب توفيق الله لعَبْدِهِ أن يحبب إليه الإيمان والطاعة، ويُكَرِّهَ إليه الكفر والمعصية، وهي المرتبة التي نالها أصحاب النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وامتن الله بها عليهم في قوله تعالىٰ:

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧﴾ [سورة الحجرات:٧].

قال ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ: (فَالَّذِي حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ أَعْلَمُ بِمَصَالِحِ عِبَادِهِ مِنْكُمْ، وَأَنْتُمْ فَلَوْلَا تَوْفِيقُهُ لَكُمْ لَمَا أَذْعَنَتْ نُفُوسُكُمْ لِلْإِيمَانِ، فَلَمْ يَكُنِ الْإِيمَانُ بِمَشُورَتِكُمْ وَتَوْفِيقِ أَنْفُسِكُمْ، وَلَا تَقَدَّمْتُمْ بِهِ إِلَيْهَا، فَنُفُوسُكُمْ تَقْصُرُ وَتَعْجِزُ عَنْ ذَلِكَ وَلَا تَبْلُغُهُ،

فَلَوْ أَطَاعَكُمْ رَسُولِي فِي كَثِيرٍ مِمَّا تُرِيدُونَ لَشَقَّ عَلَيْكُمْ ذَلِكَ وَلَهَلَكْتُمْ وَفَسَدَتْ مَصَالِحُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ، وَلَا تَظُنُّوا أَنَّ نُفُوسَكُمْ تُرِيدُ لَكُمُ الرُّشْدَ وَالصَّلَاحَ كَمَا أَرَدْتُمُ الْإِيمَانَ، فَلَوْلَا أَنِّي حَبَّبْتُهُ إِلَيْكُمْ وَزَيَّنْتُهُ فِي قُلُوبِكُمْ، وَكَرَّهْتُ إِلَيْكُمْ ضِدَّهُ لَمَا وَقَعَ مِنْكُمْ، وَلَا سَمَحَتْ بِهِ أَنْفُسُكُمْ).(١).

والتوفيق من الأمور التي لا تُطْلَبُ إلا من الله، إذ لا يقدر عليه إلا هو، فمن طلبه من غيره فهو محروم.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [سورة القصص: ٥٦].

وهذه الهداية المذكورة في الآية هي التي يُسَمِّيها العلماء هداية التوفيق، قال شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [سورة هود: ٨٨].

قال ابنُ القيّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أجمع العارفون بالله أنَّ التوفيق هو أن لا يَكِلَكَ الله إلىٰ نفسك، وأن الخذلان هو أن يُخْلِيَ بينك وبين نفسك)(٢).

وبهذا جاء التوجيه النبوي الكريم، فَعَنْ أبي بكرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**دَعَوَاتُ الْمَكْرُوبِ اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو فَلا تَكِلْنِي إِلَىٰ نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**»(٣).

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٤١٦).

(٢) المرجع السابق (١/ ٤١٥).

(٣) رواه أبو داود (٥٠٩٠) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٣٨٨).

ومما يغلط فيه كثير من الناس ظنهم أنَّ مَنْ رُزِقَ مالاً، أو منصبًا، أو جاهًا، أو غير ذلك من الأمور الدنيوية، أنه قد وفق، والأمر ليس كما ظنّوا، فإنَّ الدنيا يعطيها الله مَنْ يُحِبّ وَمَنْ لا يُحِبّ، وقد ذكر الله هذا عن ذلك الإنسان، وأخبر أن الأمر ليس كما ظن. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾ [سورة الفجر:١٥-١٧] والصواب أن الموفَّقَ هو الذي إذا أُعْطِيَ منصبًا، أو جاهًا، استعمله في مرضاة ربِّه، ونصرة دينه، ونفع إخوانه، وإن رزق مالاً أخذه من حلِّه وصرفه في طاعة ربّه، فإن من حكمة الله تعالىٰ أنْ يَبْتَلِيَ عِبادَهُ، فالموفق منهم هو الذي إذا أعطي شكر، والمخذول هو الذي إذا أُعْطِيَ طَغَىٰ وَكَفَرَ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾ [سورة العلق:٦-٧].

وقال الله عن نبيِّهِ سليمان: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [سورة النمل:٤٠].

وتوفيق الله لعباده يكون علىٰ أحوال كثيرة، فمنها أن يعرض الخير علىٰ أناس فيردونه حتىٰ ييسر الله له من أراد به الخير من عباده، وقد مكث النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكثر من عشر سنين يعرض نفسه علىٰ القبائل لينصروه، فلم يستجيبوا له حتىٰ وفَّق الله الأنصار لذلك، فنالوا الشرف العظيم في الدنيا والآخرة.

ومنها أن يوفق الله العبد في آخر حياته لعمل صالح يموت عليه فيختم الله به أعماله.

فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان غلام يهودي يخدم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فمرض، فأتاه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعوده، فقعد عند رأسه»، فقال له: «**أَسْلِمْ**»، فنظر إلىٰ أبيه وهو عنده، فقال له: أَطِعْ أبا القاسم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأسلمَ. وخرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يقول: «**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ بِي مِنَ النَّارِ**»(١)، وفي رواية: فلما مات، قال: «**صَلُّوا عَلَىٰ صَاحِبِكُمْ**»(٢).

ومنها أن يوفق الله العبد لعمل قليلٍ أجرُه عند الله كثيرٌ، فعن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أتىٰ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجلٌ مقنع بالحديد، فقال: يا رسول الله، أقاتل أو أسلم؟ قال: «**أَسْلِمْ ثُمَّ قَاتِلْ**» فأسلم ثم قاتل فقُتل، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**عَمِلَ قَلِيلاً وَأُجِرَ كَثِيرًا**»(٣).

فمن اتقىٰ الله تعالىٰ وملأ الإخلاص قلبه، وعلم الله منه صدق نيته، وأكثر من دعائه، فقد أخذ بمجامع الأسباب الموصلة إلىٰ التوفيق، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(١) رواه البخاري (١٣٥٦).

(٢) رواه أحمد (١٣٧٣٦) والنسائي في الكبرىٰ (٧٤٥٨) والحاكم في المستدرك (١٣٤٢) وصححه الألباني في إرواء الغليل (٢٤٨٠).

(٣) رواه البخاري (٢٨٠٨)، و مسلم (١٩٠٠).

التوفيق مطلب الجميع

التوفيق مطلب المؤمنين، ورجاء العابدين، وحِلية العارفين؛ يقول الله تعالىٰ: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [سورة هود: ٨٨].

ومعنىٰ التوفيق: إصابة الحق، ونيل المُبتَغىٰ، والوصول إلىٰ رضا الله تعالىٰ؛ حيث تصير حياة المؤمن سعادة ورضا وأمنًا وخيرًا كلُّها؛ لا تُغيِّرها الفتن، ولا تَعصِف بها وساوسُ شياطين الإنس والجن، فيَثبُت المؤمن علىٰ عقيدته، ويرضىٰ بقضائه، ويحمد ربَّه في سرَّائِه وضرَّائِه.

أساس التوفيق

١- أساس التوفيق عمل الصالحات، ويعين العبد علىٰ ذلك التضرع، والافتقار إلىٰ الله، والاستعانة به علىٰ طاعته؛ كما علمنا سبحانه في قوله تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [سورة الفاتحة:٥] ومما ينفع في هذا المقام الدعاء بوصية النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمعاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين قال: «**أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَىٰ ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ**»(١).

٢- صدق النية: من أعظم اسباب التوفيق هي النية الحسنة، فالدنيا لا تأتيك وتقبل لك بحسب ذكاءك وحده ولا علاقاتك او منصبك ومالك، ولكن توفيق الله لك هو الاساس، ولا يوفق للنية الطيبة الا العظماء والأخيار من البشر، راجع نيتك!

ولا يضيع ابدا من كانت نيته بيضاء ناصعة، فليثق بالله!

٣- الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ: وهو سرّ اصطفاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. سلامة القلب من كُلّ أمراض القلوب، وعلىٰ رأسها الشرك، وهذه صفةٌ من صفات الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

(١) رواه أبو داود (١٥٢٢) والنسائي في الكبرىٰ (٩٨٥٧) وأحمد (٢٢١١٩) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٩٦٩ - ٣٠٦٣).

٤- **إحسان الظنّ بالله**، ويكون ذلك بالرضا والتسليم لكُلّ ما يقضيه علىٰ المسلم ويقدره له، كما يكون بالإيمان الجازم بحكمته وعلمه وخبرته.

٥- **التبرؤ التام من حول المسلم وقوته**، والاعتماد الكامل عليه سبحانه، فهذا هو التوكّل الحقيقي علىٰ الله.

٦- **المداومة على الإنابة والتوبة إلى الله سبحانه**، والإقبال عليه بكُلّ المحبّة والخضوع مع الإعراض عن كُلّ ما سواه.

٧- **اليقين بالله**، ويكون باعتقاد أنّ كُلّ ما في الكون مسيّرٌ بحكمة الله وعلمه وتدبيره.

٨- **برّ الوالدين**، وهو من أعظم أبواب التوفيق وتحقيق السعادة للمسلم في الدنيا والآخرة.

٩- **المسارعة في الخيرات، والمبادرة في الصالحات**، ويكون ذلك باغتنام فرص الأجر والثواب، والجدّ في طلب مواطن الخير.

٩- **كثرة اللجوء إلى الله عَزَّوَجَلَّ** ودعائه ومسألته في شتّىٰ الأمور، وهذا فعل الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام.

علامات توفيق الله للعبد

۞ لتوفيق الله عَزَّوَجَلَّ علاماتٌ يُعرف بها، وفيما يأتي بيان جانبٍ منها:

١- تيسير العمل الصالح له وتوفيقه إليه.

٢- تيسير طلب العلم الشرعيّ والتفقّه في الدين.

٣- السداد والصواب في أقوال المسلم وأفعاله.

٤- صرف قلب المسلم عن الدنيا والطمع فيها، وانشغاله بالآخرة وإرادتها وطلبها.

٥- مداومة المسلم علىٰ العودة إلىٰ الله تعالىٰ، والتوبة عن المعاصي والذنوب.

٦- حرص المسلم علىٰ نفع الناس وقضائه حوائجهم والعطف عليهم.

٧- ميل المسلم للطاعة وحبّه لها، ونفرته من المعاصي والآثام، صدق نية المسلم وإخلاصه لله تعالىٰ.

٨- إعانة المسلم علىٰ نشر الخير، والدعوة إلىٰ الله والإصلاح في الأرض.

أسباب الخذلان وعدم التوفيق

۞ كما أنّ للتوفيق أسباباً فإنّ للخذلان أسباباً أيضاً، وفيما يأتي بيان جانبٍ منها:

١- اتّباع الهوىٰ؛ فهو من أسباب إغلاق باب التوفيق عن المسلم وفتح باب الخذلان أمامه.

٢- كثرة المعاصي والذنوب، فهي تُعمي بصيرة القلب وتطمس نوره، وتحجب موارد الهداية وتسدّ طرق العلم.

٣- الكِبر والغرور في القلب.

٤- التعلّق بغير الله، فمن تعلّق بغيره كان من أكثر الناس خذلانـًا.

٥- الرياء والحرص علىٰ رضا العباد.

من أقوال السلف في التوفيق

الأمور الدينية والدنيوية، والتوفيق لا يكون إلا بمعونة الله عَزَّوَجَلَّ وتأييده، نسأل الله لنا ولجميع المسلمين التوفيق والسداد في القول والعمل.

للسلف أقوال عن التوفيق، يسَّر الله فجمعت بعضًا منها، أسأل الله أن ينفع بها.

قال ابنُ القيِّم: رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (التوفيق ألَّا يكِلَك الله تعالىٰ إلىٰ نفسك)(١).

قال الإمام أبو المظفر السمعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (التوفيق من الله: هو التسهيل والتيسير والمعونة)(٢).

قال الإمام البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (التوفيق ... تسهيل سُبُل الخير والطاعة)(٣).

قال الإمام القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (التوفيق: الرشد)(٤).

قال الشيخ صالح بن عبدالعزيز بن محمد آل الشيخ: (التوفيق: هو إعانة خاصة من الله عَزَّوَجَلَّ للعبد، بها يضعف أثر النفس والشيطان، وتقوىٰ الرغبة في الطاعة، وإلا فالعبد لو وُكِّل إلىٰ نفسه لغلبته نفسه الأمَّارة بالسوء والشيطان).

---

(١) مدارج السالكين (١/ ١٩٨) والوابل الصيب من الكلم الطيب (ص: ٧).

(٢) تفسير السمعاني (٢/ ٤٥٢).

(٣) تفسير البغوي - إحياء التراث (٢/ ٤٦٢).

(٤) تفسير القرطبي (٩/ ٩٠).

التوفيق شيء استثنائي من الله للعبد السالك

۞ التوفيق بيد الله، ولا يكون إلا بمعونة الله عَزَّوَجَلَّ وتأييده:

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (التوفيق والرشد بيد الله لا مانع لما أعطىٰ ولا مُعطي لما منع ... وقد أجمع العارفون علىٰ أن كل خير فأصله بتوفيق الله للعبد)(١).

قال الإمام جمال الدين القاسمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ [سورة هود: ٨٨]: أي: وما كوني موفقًا للإصلاح إلا بمعونة الله وتأييده)(٢).

قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾؛ أي: ما يحصل لي من التوفيق لفعل الخير، والانفكاك عن الشر إلا بالله تعالىٰ، لا بحولي ولا بقوتي)(٣).

إذا لـم يكـن عـون مـن الله للفتـىٰ ... فـأول مـا يجنـي عليـه اجتهـاده

لا تفتخر بعلمك أو قوتك أو مالك، كل ما سبق، قد يكون سبب دمارك، إذا لم يكن هناك عون من الله وتوفيق لك في مسيرة الحياة.

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٢٤٢).

(٢) تفسير القاسمي، محاسن التأويل (٦/ ١٢٦).

(٣) تفسير السعدي، تيسير الكريم الرحمن (ص: ٣٨٧).

سؤال الله عَزَّوَجَلَّ التوفيق

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (التوفيق هو بيد الله لا بيد العبد، ومفتاحه الدعاء والافتقار وصدقُ اللجأ والرغبة والرهبة إليه، فمتىٰ أعطي العبد هذا المفتاح فقد أراد أن يفتح له)(١).

قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (العبد ينبغي له ألَّا يتَّكِل علىٰ نفسه طرفة عين، بل لا يزال مستعينًا بربه، متوكلًا عليه، سائلًا له التوفيق)(٢).

من صدق في دعائه وابتهل إلىٰ الله جَلَّوَعَلَا فالتوفيق قريب منه:

قال الشيخ عبداللطيف بن عبدالرحمن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (القلب ... إذا ابتهل إلىٰ الله بالأدعية المأثورة، كدعاء الاستفتاح: «**اللهم رب جبريل، وميكائيل وإسرافيل**»؛ الحديث، لا سيما في أوقات الإجابة، فإن هذا لا تكاد تسقط له دعوة، والتوفيق له أقرب من حبل الوريد).

(١) الفوائد لابن القيم (ص: ٩٧).

(٢) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٣٨٩).

مفاتيح التوفيق

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (مفتاح التوفيق: الرغبة والرهبة)(١).

التوفيق خير قائد: قال ابن قتيبة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (حُسْن الخلق خيرُ قرين، والأدبُ خيرُ ميراث، والتوفيقُ خيرُ قائد. أجمعوا علىٰ أن التوفيق ألا يكلك الله إلىٰ نفسك، وأن الخذلان هو أن يُخلي بينك وبين نفسك، فإذا كان كل خير فأصله التوفيق، وهو بيد الله لا بيد العبد، فمفتاحه الدعاء والافتقار، وصدق اللجإ والرغبة والرهبة إليه، فمتىٰ أعطي العبد هذا المفتاح، فقد أراد الله أن يفتح له، ومتىٰ أضله عن المفتاح، بقي باب الخير مُرتجا دونه)(٢).

۞ ومن مفاتيح التوفيق:

الدعاءُ والافتقار إلىٰ الله، وعلىٰ قدر نية العبد وهِمَّتِه؛ يكون توفيق الله له وإعانته.

التوكل والإنابة: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [سورة هود: ٨٨].

والرغبةُ من أعمال القلوب، وهي: إرادةُ الشَّيءِ مع حرصٍ عليه؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [سورة التوبة: ٥٩]؛ أي: "متضرعون في جَلْب منافِعِنا، ودفْعِ

(١) حادي الأرواح إلىٰ بلاد الأفراح (ص: ٦٨).

(٢) مدارج السالكين (١/ ٤١٥) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١/ ١٢٨).

مضارِّنا"(١)، وعلىٰ المؤمنِ أنْ يرْغبَ إلىٰ الله وإلىٰ ما عندَه، فذلك خيرٌ وأبقىٰ، والرَّغْبةُ من صفات عبادِ اللهِ من الأنبياء والمُرسلين والشُّهداءِ والصالحين؛ حيثُ ذكرَ اللهُ تعالىٰ أنَّ من أوصافِهم الرغبةَ فيما عندَه؛ إذْ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [سورة الأنبياء:٩٠] أي: "إنهم كانوا يعبدونه رغبةً منهم فيما يرجون منه من رحمته وفضله ﴿وَرَهَبًا﴾ يعني رهبةً منهم من عذابه وعقابه، بترْكهم عبادتَه وركوبِهم معصيتَه"(٢)، وكان النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكثرَ الخلقِ رغبةً فيما عند الله؛ حيث بلَّغَ الرسالةَ، وأدَّىٰ الأمانةَ، ونصحَ الأمةَ، وجاهدَ في سبيل اللهِ، وصبَر علىٰ مرضاتِه، وتقرَّبَ إليه بطاعته وعبادتِه، والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴿٨﴾﴾ [سورة الشرح:٧-٨] أي: "إذا فرغت من أمور الدنيا وأشغالها وقطعت علائقها، فانصب في العبادة، وقم إليها نشيطًا فارغ البال، وأخلص لربِّك النية والرغبة"(٣).

وفي الحديث المبارك الذكر الذي يقال عند النوم عن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ رسول اللّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إِذَا أَخَذْتَ مَضْجَعَكَ، فَتَوَضَّأْ وُضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَىٰ شِقِّكَ الأَيْمَنِ، ثُمَّ قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْلَمْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ**

(١) انظر تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٣٤١).

(٢) انظر تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (١٨/ ٥٢١).

(٣) انظر تفسير ابن كثير ط العلمية (٨/ ٤١٨).

أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الذي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الذي أَرْسَلْتَ، وَاجْعَلْهُنَّ مِن آخِرِ كَلَامِكَ، فإنْ مُتَّ مِن لَيْلَتِكَ، مُتَّ وَأَنْتَ علَىٰ الفِطْرَةِ، قالَ: فَرَدَّدْتُهُنَّ لأَسْتَذْكِرَهُنَّ فَقُلتُ: آمَنْتُ برَسُولِكَ الذي أَرْسَلْتَ، قالَ: قُلْ: آمَنْتُ بنَبِيِّكَ الذي أَرْسَلْتَ، وَزَادَ في حَدِيثِ حُصَيْنٍ: وإنْ أَصْبَحَ أَصَابَ خَيْرًا»(١) متفق عليه.

فلتكنْ رغبتُنا إلىٰ ما عند الله، بعملٍ صالح، وتوبةٍ صادقة، وعقيدةٍ سليمة، وخُلقٍ قويم، وتسامحٍ لا تخالِطُه بغضاءُ ولا شَحْناء.

اللهم إنا نسألُك عيشَ السُّعداء، وموتَ الأتقياء ومرافقةَ الأنبياء، اللهم إنا نسألُك الجنةَ وما قرَّب إليها من قولٍ أو عمل، ونعوذُ بكَ من النار وما قرَّبَ إليها من قولٍ أو عمل.

۞ سعادة العبد أن يمنَّ الله عَزَّوَجَلَّ عليه بالتوفيق:

قال العلامة العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إذا رأيت من نفسك أن الله عَزَّوَجَلَّ قد منَّ عليك بالهداية والتوفيق، والعمل الصالح، ومحبة الخير وأهل الخير، فأبشر؛ فإن في هذا دليلًا علىٰ أنك من أهل اليسرىٰ الذين كتبت لهم السعادة)(٢).

قال العلامة صالح بن فوزان الفوزان: (إذا تولاك الله برعايته وبتوفيقه وهدايته في الدنيا، وفي الآخرة، فإنك تسعد سعادة لا شقاء بعدها أبدًا في الدنيا يتولاك

(١) رواه البخاري (٢٤٧) ومسلم (٢٧١٠)

(٢) شرح العقيدة الواسطية للعثيمين (١/ ٤٤٤) و مجموع فتاوىٰ ورسائل العثيمين (٨/ ٣٧٨).

بالهداية والتوفيق، والسير علىٰ المنهج السليم، وفي الآخرة يتولَّاك بأن يدخلك جنته خالدًا مُخلَّدًا فيها، لا خوف ولا مرض ولا شقاء، ولا كبر ولا مكاره، هذه ولاية الله لعبده المؤمن في الدنيا والآخرة).

مدرسة التوفيق

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وعلىٰ قدر نية العبد وهمته ومراده ورغبته في ذلك يكون توفيقه وإعانتهُ؛ فالمعونة من الله تنزل علىٰ العباد علىٰ قدر هممهم وثباتهم ورغبتهم ورهبتهم، والخذلان ينزل عليهم علىٰ حسب ذلك. فالله سبحانه أحكم الحاكمين وأعلم العالمين، يضع التوفيق في مواضعه اللائقة به والخذلان في مواضعه اللائقة به وهو العليم الحكيم)(١).

نعم يا ابن القيم في أي مدرسة درست، أو من أي جامعة تخرجت؟!

إنها مدرسة التوفيق بفضل الكريم المنان.

إنها كلمة تهز القلوب هزًا، تجعله يتلفت يمينًا وشمالًا في حاله وكلامه وعمله ومدخله ومخرجه، هل هو سائر علىٰ طريق التوفيق والسداد أم لا؟! قال الحكيم العليم: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ٨٠﴾ [سورة الإسراء:٨٠].

وإذا أحب الله عبدا وفقه وحباه، وجعل من أخلاقه الرحمة والحب والعطاء، والصبر والوفاء والكرم والعفو، والتجاوز عن الغير، والتواصل بالبر والإحسان، وهذا - وربي - طريق التوفيق والسداد في الدنيا والآخرة خير وأبقىٰ.

(١) الفوائد لابن القيم (ص: ٩٧).

تأمل وفقك الله في هذا الحديث النبوي: عن أبي عنبة الخولاني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**لا يزال الله يغرس في هذا الدين غرسًا يستعملهم في طاعته**»(١).

فأي منزلة، وأي توفيق، وأي فضل هذا أن يوفقك ربك لإعلاء كلمته ونصرة دينه وتتبع مرضاته؟! وبقدر ما تقدم وتبذل لدينك يجتبيك ربك ويوفقك ويحفظك، وهو خير الحافظين، والجزاء من جنس العمل، ويؤكد ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ هذا المعنىٰ الراقي قائلًا: (... التوفيق كله بيد الله عَزَّوَجَلَّ فمن يُسر عليه الهدىٰ اهتدىٰ، ومن لم يُيسره عليه لم يُتيسر له ذلك)(٢).

وفي الحديث قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أما أهل السعادة، فيُسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فيُسرون لعمل أهل الشقاوة**»(٣).

ويحلِّق بنا ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ قائلًا: (وقد أجمع العارفون علىٰ أن كل خير فأصله بتوفيق الله للعبد، وكل شرٍّ فأصله خذلانه لعبده، وأجمعوا أن التوفيق ألَّا يكلك الله إلىٰ نفسك، وأن الخذلان هو أن يخلِّي بينك وبين نفسك، والتوفيق بيد الله، فمفاتحه: الدعاء، والافتقار، وصدق اللجأ والرغبة والرهبة إليه، فمتىٰ أُعطي العبد هذا المفتاح، فقد أراد أن يفتح له، ومتىٰ أضله عن المفتاح، بقي باب الخير مرتجًا دونه)(٤).

---

(١) رواه ابن ماجه (٨) وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٥/ ٥٧١).

(٢) جامع العلوم والحكم ت الأرنؤوط (٢/ ١٣٧).

(٣) رواه البخاري (١٣٦٢) ومسلم (٢٦٤٧).

(٤) مدارج السالكين (١/ ٤١٥) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١/ ١٢٨).

ويؤكد الشيخ خالد المصلح - حفظه الله - علىٰ هذا المعنىٰ بقوله: (من أعظم أسباب التوفيق الكبرىٰ: سلامة القصد، وصفاء النية وخلوصها من الغل والدغل؛ ولهذا قال الله عَزَّوَجَلَّ مُنبهًا علىٰ هذا المعنىٰ في الحكمين عند اختصام الزوجين ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرٗا ٣٥﴾ [سورة النساء:٣٥].

ورحم الله من قال: إذا حانت فرص الأجر فلم يغتنمها العبد، ودعاه داعي الخير فأعرض عنه؛ فهذا من خذلان الله - عياذاً بالله - ألم يقل ربنا: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ٤٦﴾ [سورة التوبة:٤٦]، فينبغي أن نجيب داعي الخير دائما، وهذا لا يتأتىٰ إلا بتوفيق رب العالمين).

يقول الشيخ سفر الحوالي -حفظه الله-: (إن القلوب تنشط أحيانا وتتكاسل أحيانا، والواجب علينا أن نستغل ساعة نشاطها في قطع الطريق إلىٰ الله، أما ساعة فتورها فلا تفتر، بل علينا أن نجاهدها ونضربها بسياط الخوف من الله تعالىٰ، ونحدوها بحادي الرجاء).

وتأمل في هذا الأفق البعيد حيث قال أبو سليمان الداراني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إن التوفيق علىٰ قدر القُربة !)(١).

وصدق: أي علىٰ قدر طاعتك وقربتك واجتهادك في عمل الطاعات آناء الليل وأطراف النهار، يكون توفيقك من ربك الكريم المتعال، فالتوفيق ينزل من عند الله - جل في علاه - الذي بيده خزائن السموات والأرض، فتضرع، وانكسر، وانطرح،

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٢٧٣) (٨٧٢) وانظر تاريخ دمشق لابن عساكر (٣٤/ ١٤٢).

وألح، وسارع في الخيرات وأكثر من السجود بين يديه، واقرع أبواب السماء، واستمطر التوفيق من ذي الجلال والإكرام ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [سورة الأنبياء:٩٠].

✧ **أيها الموفق**، يناديك ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قائلا لك: متىٰ رأيت في نفسك عجزًا فاسأل المنعم، أو كسلاً فالجأ إلىٰ الموفق، فلن تنال خيراً إلا بطاعته، ولا يفوتك خير إلا بمعصيته.

وقد أجمع العلماء علىٰ أن التوفيق: ألا يكل الله العبد إلىٰ نفسه، وأن الخذلان كل الخذلان أن يخلي بينه وبين نفسه(١).

وبين لنا ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ الطريق إلىٰ التوفيق بقوله: (وإنما غاية الكرامة لزوم الاستقامة، فلم يكرم الله عبدا بمثل أن يعينه علىٰ ما يحبه ويرضاه، ويزيده مما يقربه إليه ويرفع به درجته)(٢).

فتحسس - يا رعاك الله - مواضع قدميك، وانظر أين تسير بهما.

(١) انظر مدارج السالكين (١/ ٤١٥) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١/ ١٢٨).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (١١/ ٢٩٨).

من التوفيق والسعادة

تحري ساعات واوقات الإجابة كل ليلة، والإكثار من الدعاء كل ليلة -قائما وقاعدا وعلىٰ جنب- رجاء موافقتها.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن في الليل لساعة، لا يوافقها رجل مسلم يسأل الله خيرا من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه، وذلك كل ليلة**»(١).

وأحراها جوف الليل: منتصف الليل وما بعده.

(١) رواه مسلم (٧٥٧).

معالم على طريق التوفيق: بر الوالدين

ومن معالم التوفيق برك بوالديك، والتفاني في طاعتهما وخدمتهما ليلًا ونهارًا؛ ففيهما فجاهد، هكذا نطق الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فالموفق من أسعد والديه بكل ما تحمله كلمة السعادة من معنىٰ، حبًا، وبراً، وعطاءً، ووفاءً، وكرمًا، ومالاً، وسفراً، وشكراً.

والموفق من يفكر دائما كيف أدخل السرور علىٰ قلبيها يقول الشيخ عبد المحسن القاسم -حفظه الله-: (بر الوالدين خُلق الأنبياء، ودأب الصالحين، وسبب تفريج الكربات، وتنزل البركات وإجابة الدعوات، به يشرح الصدر وتطيب الحياة، وهو طريق الجنة، ففي الحديث: «**الوالد أوسط أبواب الجنة، فإن شئت فأضع ذلك الباب أو أحفظه**»)(١)،(٢).

إنه طريق البر والتوفيق الموصل إلىٰ رضوان الله والجنة. ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ [سورة الإسراء: ٢٣].

(١) رواه الترمذي (١٩٠٠) ابن ماجه (٣٦٦٣) وأحمد (٢٧٥١١) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧١٤٥).

(٢) خطوات إلىٰ السعادة (ص: ٣٣).

عن أصبغ بن زيد قال: «إنما منع أويسًا أن يقدم علىٰ النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ برُّهُ بأمِّه»(١).

والموفق من استخرج من قلبيهما الدعاء الصادق له بالتوفيق والسداد قبل رحيلهما من الدنيا.

✧ **أيها الموفق**: دعاءُ والديك لك بالتوفيق والرشاد؛ فإنهما من أسباب السعادة في الدنيا والآخرة، واعلم أن دعوتهما مستجابة.

ويخاطب الشيخ سلمان العودة -حفظه الله- الآباء والأمهات، ويلفت أنظارهم قائلًا: (لا تدعوا علىٰ أولادكم إلا بخير، حتىٰ لو غضبتم، فالدعوة الصالحة الصادقة من الوالدين مظنة الإجابة، وأن تفتح لها أبواب السماء، فاجعلوا دعواتكم لهم جزءًا من مشروع التربية والتوجيه والأمل الجميل) ا.هـ.

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ [سورة الفرقان:٧٤] كم سَعِد من سعد! كم فاز من فائز! بعلم أو تجارة أو خُلقٍ أو منصب، كان وراء ذلك دعوة صادقة خرجت من قلب أم أو أب، فلا تحرموا أولادكم بمثل هذه الدعوات.

✧ **أيها الموفق**:

أقولها لك بكل صدق وصراحة، تلذّذ في حياتك الدنيا ببرك بوالديك، وتفنن ببرك بهما، وخاصة أمك، كما تتلذّذ بحلو الطعام والشراب، ألم يقل نبينا صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**الزم رجلها؛ فثم الجنة**»(٢) فماذا تريد إذن؟

---

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٢٥)

(٢) رواه ابن ماجه (٢٧٨١) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٢٤٨ - ٥٦٢).

أخي الغالي: ها هي أمك الغالية الحنون بين يديك، اطلب رضاها، تمتع ببرك بها، ابذل لها كل ما تحب، اجعلها تدعو لك بالتوفيق.

ووالله ستوفق إن شاء الله في حياتك، وستعيش سعيدًا ببرك لها في الدنيا والآخرة.

ولتعلم أيها الموفق أن: أمك هي صاحبة القلب الأول في الدنيا الذي يحبك بصدق، أمك هي صاحبة الإنجاز الأول في حياتك، أمك هي التي جعلتك يُشار لك بالبنان، أمك هي التي حملتك في بطنها تسعة أشهر،

أمك هي التي أرضعتك حولين كاملين، وأنت تشرب من صميم فؤادها.

أمك هي نبع العطف والحنان، فهل عرفت حقها؟!

أمك هي التي تعجز العبارات والكلمات عن وصفها.

أمك، ثم أمك، ثم أمك، ثم أبوك، هكذا نطق بها الصادق المصدوق: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ٦٠﴾ [سورة الرحمن:٦٠]".

۞ إضاءة على الطريق:

طوبىٰ لمن أسعدها في دنياه، ففاز بخير الدنيا والآخرة.

ثلاث طرق تنال بها التوفيق والنجاح في عملك

يعاني الكثير من الناس سوء الحظ، وقلة الرزق، وعدم التوفيق في أمور الدنيا، ودائما ما يشعر بعضنا بملازمة النحس وقلة النجاح في أغلب أموره، فيظن في نفسه شرا، ونحسا، طوال الوقت، وهذا لا يعني العجز وترك الأخذ بالأسباب، فإن الله تعالىٰ قدَّر للأرزاق أسبابًا تؤدِّي إليها، كما قدَّر الأكل سببًا للشبع، والشرب سببًا للرِّي، والزواج سببًا لتحصيل الذرية، وهكذا.

والتّوفيق هو الإلهامَ للخَيْر، وهو أيضا الهداية والرشد والتأييد والتسديد، وهو سَدُّ طريق الشّرّ وتسهيل طريق الخير.

۞ الطريق الأولى الافتقار إلى الله وطلب العون منه :

فذُلّ العبد وانكساره، وخضوعه لله، واقراره بعجزه وضعفه يجلب له التوفيق بحول الله وقوته، فالتوفيق محض منّة من الله؛ فرجاؤه وحصوله مقصور عليه سبحانه، وتوفيقه، قال تعالىٰ حكاية عن نبيه شعيب: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [سورة هود: ٨٨].

فالعبد مطالب بالابتعاد عن الغرور ومطالب بالسعي والاجتهاد في طلب الخير، فعليه أن يستمد العون من ربه علىٰ ذلك، وأن يعلم أنه لا يقدر علىٰ ذلك إلا هو؛ فيسأله توفيقه مسألة المضطر، ويعوذ به من خذلانه عياذ الملهوف.

يقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللَّهُمَّ رحمتَك أرجو، فلا تَكِلْني إلىٰ نفسي طَرْفَةَ عين، وأَصلِح لي شَأني كلَّه، لا إله إلا أنتَ**»(١).

أي لا تفوض أمري إلىٰ نفسي لحظة قليلة قدر ما يتحرك البصر، فإن من سلب التوفيق لم يملك نفسه، ولم يأمن أن يضيع الطاعات ويتبع الشهوات، فينبغي لكل مؤمن أن يكون هذا الخوف في باله واعتباره.

۞ الطريق الثانية: عدم الاغترار بالعقل والذكاء:

ترك الاغترار بالعقل والاعتماد عليه، أهم مداخل العمل الصالح والتوفيق إليه، فكم من ذكي أضلَّه اللهُ علىٰ علم، يقول الله تعالىٰ: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٢٦﴾ [سورة الأحقاف: ٢٦].

وصدق من قال: (قليل التوفيق خير من كثير العقل)(٢).

وفي رواية (خير من كثير العمل)(٣)، وفي أخرىٰ (خير من كثير العبادة)(٤).

---

(١) رواه أبو داود (٥٠٩٠) والنسائي في الكبرىٰ (١٠٤١٢) والبخاري في الأدب المفرد (٥٤٢/ ٧٠١) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٣٨٨)

(٢) رواه ابن عساكر (١٢٤٧٥) عن أبي الدرداء وانظر فيض القدير (٤/ ٥٢٦) (٨٥٣٩) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٤١٠٩).

(٣) رواه أبو نعيم في (حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٩/ ٣٢٣) وانظر فيض القدير (٤/ ٥٢٦) وصفة الصفوة (٢/ ٣٨٩).

(٤) انظر فيض القدير (٤/ ٥٢٦).

ولذلك قيل:

إِذَا لـم يَكُـنْ عَـونٌ مِـنَ اللهِ لِلفَتـىٰ فَـأَوَّلُ مَـا يَجنِـي عَلَيـهِ اجتِهَـادُهُ

غير قادر علىٰ التحمل .. تعرف علىٰ المنهج النبوي في مواجهة الضغوط.

۞ الطريقة الثالثة: الهِمَّة وصِدْق العزيمة:

علىٰ قدر نية العَبْد وهمته وَمرَاده ورغبته يكون توفيقه سُبْحَانَهُ وإعانته، والخذلان ينزل عَلَيْه علىٰ حسب ذلك، وقد قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ﴾ [سورة النساء:٣٥] فجعل النية سبب التوفيق.

قال ابن القيم: (سعادة العبد في صدق العزيمة وصدق الفعل؛ فصدق العزيمة: جمعها وجزمها وعدم التردد فيها، بل تكون عزيمة لا يشوبها تردد ولا تلوم. فإذا صدقت عزيمته بقي عليه صدق الفعل، وهو استفراغ الوسع وبذل الجهد فيه، وأن لا يتخلف عنه بشيء من ظاهره وباطنه. فعزيمة القصد تمنعه من ضعف الإرادة والهمة، وصدق الفعل يمنعه من الكسل والفتور. ومن صدق الله في جميع أموره صنع الله له فوق ما يصنع لغيره. وهذا الصدق معنىٰ يلتئم من صحة الإخلاص وصدق التوكل؛ فأصدق الناس من صح إخلاصه وتوكّله)[1].

(١) الفوائد لابن القيم (ص: ١٨٦).

التوبة مفتاح التوفيق والسعادة

التوبة النصوح بالاقلاع عن الذنب والندم علىٰ الفعل والعزم علىٰ عدم العود، مفتاح الرحمة وسبيل السعادة ووسيلة الفوز والنجاح والفلاح.

ومن اقبل علىٰ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بصدق الطاعة وحسن العبادة اقبل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عليه بالرضىٰ والرضوان والقبول والانعام، ومن فتح علىٰ نفسه باب حسنة فتح الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عليه سبعين بابا من التوفيق ومن تقرب الىٰ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ شبرا تقرب الله سبحانه اليه ذراعا ومن تقرب الىٰ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ذراعا تقرب الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ اليه باعا ومن اتاه يمشي اتاه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هرولة، بمعنىٰ من تقرب الىٰ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بالطاعة وحسن العبادة، اسرع الله تعالىٰ اليه بالرضىٰ والقبول.

وفي الحديث القدسي عن رب العزة جَلَّوَعَلَا: «**ما تقرب الي عبدي بشيء احب الي مما افترضته عليه، ولايزال عبدي يتقرب الي بالنوافل حتىٰ احبه فإذا احببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ولئن سألني لاعطينه ولئن استعاذني لاعيذنه**»(١).

(١) رواه البخاري (٦٥٠٢).

واذا أراد الله تعالىٰ ان يوالي عبده فتح له باب ذكره، فاذا استلذ ذكره فتح له باب قربة ورفع عنه الحجب وكشف له عن الجلال والعظمة، واخرجه من حسه ودعاوىٰ نفسه وجعله في مقام العلم فيسمع ويبصر ما لم يكن يبصر ويفهم ما لم يكن يفهم وصدق الله العظيم ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [سورة البقرة:٢٨٢] ويقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢﴾ [سورة فاطر:٢] ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝١٠٥﴾ [سورة البقرة:١٠٥].

قال انس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سمعت رسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما يرويه عن رب العزة يقول: «**يا ابن آدم انك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك علىٰ ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا ابالي، يا ابن آدم انك لو اتيتني بقراب الارض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة**»(١) وصدق الله العظيم: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ۝١٥٦﴾ [سورة الأعراف:١٥٦].

وكان الفضيل بن عياض من كبار المجرمين وقطاع الطرق العتاة المحاربين، وكان ممن يعيث في الارض فسادا وفي ليلة تواعد مع فتاة كان قد شغف بها حبا وبينما كان يتسلق اليها الجدار اذ به يسمع قارئ القرآن يتلو قول الله تعالىٰ:

(١) رواه الترمذي (٣٥٤٠) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٣٣٨).

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [سورة الحديد:١٦] فتراجع وقال: بلىٰ يارب قد آن الاوان ولقد تبت الآن وجعلت صدق توبتي اليك جوار بيتك الحرام ومارقة تلك الديار(١) فقبل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ توبته وفتح له الباب واباحه الاسرار وكشف له عن الحجب ومنحه العلوم والمعارف، وجعله من كبار اوليائه الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [سورة الزمر:٥٣]

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [سورة آل عمران:١٣٥-١٣٦].

وعن ابي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله تعالىٰ بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله تعالىٰ فيغفر لهم**»(٢).

---

(١) انظر تاريخ دمشق لابن عساكر (٤٨/ ٣٨٢) و سير أعلام النبلاء ط الحديث (٧/ ٤٠٣)

(٢) رواه مسلم (٢٧٤٩).

وعلىٰ المذنب ان يقلع عن المعصية ويبادر بالتوبة والاستغفار من غير تسويف ولا تفريط قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١٧ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ١٨﴾ [سورة النساء:١٧-١٨].

عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**من قال استغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم واتوب اليه غفرت ذنوبه وان كان قد فر من الزحف**»(١).

وعن ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اذا انصرف من صلاته استغفر الله ثلاثا وقال: «**اللهم انت السلام ومنك السلام تباركت ياذا الجلال والاكرام**»(٢).

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجا ومن كل هم فرجا ورزقه من حيث لا يحتسب**»(٣).

---

(١) رواه أبو داود (١٥١٧) وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود (١٥١٧) وتحقيق رياض الصالحين للألباني (ص: ٦٣٩) (١٨٨٣).

(٢) رواه مسلم (٥٩١).

(٣) رواه أبو داود (١٥١٨) وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (٧٠٥) وقال قلت: وسنده ضعيف، الحكم بن مصعب مجهول كما قال الحافظ في "التقريب".

وعن شداد بن اوس رضي الله تعالىٰ عنه عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لاَ إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَىٰ عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ» قَالَ: «وَمَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا، فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا، فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ»(١).

اللهمَّ ارزقنا السعادة والتوفيق في كلّ خطوةٍ نخطوها في حياتنا.

(١) رواه البخاري (٦٣٠٦).

من أسباب عدم التوفيق في الحياة

توفيق الله للعبد هو النجاح في الدنيا و الأخرة. الافتقار إلىٰ الله من اعظم اسباب التوفيق.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾ [سورة البقرة:٢١٦].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والعبد لجهله بمصالح نفسه، وجهله بكرم ربه، وحكمته، ولطفه؛ لا يعرف التفاوت بين ما منع منه، وبين ما ذخر له، بل هو مولع بحب العاجل، وإن كان دنيئا، وبقلة الرغبة في الآجل، وإن كان عليا) ا.هـ(١).

ومع ذلك فإنه إذا نزلت بالعبد بلية، أو شعر بعدم التوفيق في بعض الأمور، فعليه أن يتهم نفسه، ويجدد التوبة إلىٰ الله، فإنه كما قيل: لم ينزل بلاء إلا بذنب ولم يكشف إلا بتوبة. ففي صحيح مسلم عن أبي ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما يرويه عن ربه: «... **يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه**»(٢).

(١) الفوائد لابن القيم (ص: ٥٧).

(٢) رواه مسلم (٢٥٧٧).

قال ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في جامع العلوم والحكم: (فالمؤمن إذا أصابه في الدنيا بلاء، رجع إلىٰ نفسه باللوم، ودعاه ذلك إلىٰ الرجوع إلىٰ الله بالتوبة والاستغفار) ا.هـ(١).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الجواب الكافي: (ومن عقوبات الذنوب إنها تزيل النعم وتحل النقم، فما زالت عن العبد نعمة الا لسبب ذنب، ولا حلت به نقمة إلا بذنب). ا.هـ(٢).

فبادر بتجديد التوبة العامة الشاملة من كل الذنوب الباطنة والظاهرة، واستعن بالله علىٰ الاجتهاد في الأعمال الصالحة، وأكثر من الاستغفار، وحصن نفسك بالمحافظة علىٰ الأذكار المسنونة والرقىٰ المشروعة من العين ونحوها.

(١) جامع العلوم والحكم (٢/ ٥٣).

(٢) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي = الداء والدواء (ص: ٧٤).

التوفيق ضرورة حياتية

﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ٨٨﴾ [سورة هود:٨٨] قالها "شعيب" عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ فيما قصه الرب جَلَّوَعَلَا فالعبد في غاية الضرورة إلىٰ توفيق الله جَلَّوَعَلَا، ليس في الكون أحد يستغني عن حول الله وقوته، وعن توفيقه وتسديده.

ولذلك التوفيق ضرورة لا يستغني عنها الإنسان في كل حال من الأحوال، والحاجة إليه ملحَّة، ولذلك قيل لبعضهم- أي لبعض أهل العلم والسلف الصالحين-: (ما الشيء الذي لا يستغني عنه الإنسان في حال من الأحوال، فبادر الجواب فقال: التوفيق؛

إذا لـم يكـن عـون مـن الله للفتـىٰ فـأول مـا يجنـي عليـه اجتهـاده)

الإنسان ضعيف برأيه، ضعيف ببدنه، ضعيف خلقًا ورأيًا وعلمًا، وعملًا؛ وهذا الضعف، لا يمكن أن يدرك به الإنسان مصالحه، لا في دينه، ولا في دنياه.

أجمع الأمور التي يُستجلب بها التوفيق

أجمع العارفون بالله علىٰ أنَّ التوفيق أن لايكِلك الله إلىٰ نفسك، وأن الخذلان: أن يوكل العبد إلىٰ نفسه، ومما ينبغي أن يعتنىٰ به في هذا المقام معرفة الأمور التي يُستجلب بها التوفيق وتتلخص في النية الصالحة التي هي أساس العمل وقوامه وصلاحه، وكثرة الدعاء والإلحاح علىٰ الله؛ فإن من أُعطي الدعاء فقد أعطي مفتاح التوفيق وبابه، وصدق التوكل علىٰ الله جَلَّوَعَلَا؛ كما في قول شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [سورة هود:٨٨]، وإصلاح النفس بالعلم؛ فإن العلم نورٌ لصاحبه وضياء، فما أُتي من أتي في هذا الباب إلا من إضاعته لعلم الشريعة التي هي أعظم أبواب التوفيق والسعادة في الدنيا والآخرة، ومجاهدة النفس علىٰ العبادة والطاعة فرضها ونفلها، وملازمة أهل الصلاح والاستقامة، والبُعد عن أهل الشر والفساد؛ فإن من فتح علىٰ نفسه باب مجالسةٍ لأهل شرٍ وفساد فتح علىٰ نفسه من باب الخذلان والحرمان شيئا عظيما بحسب حاله من هذه المجالسة، وبالله وحده التوفيق.

الأسباب الرئيسة للتوفيق

۞ وللتوفيق أسباب، منها:

السبب الأول: ذُلّ العبد وانكساره، وخضوعه لله، واقراره بعجزه وضعفه: التوفيق محض منّة من الله؛ فرجاؤه وحصوله مقصور عليه سبحانه، وتوفيقه، قال تعالىٰ حكاية عن نبيه شعيب: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [سورة هود:٨٨]، فكما أن العبد مطالب بالسعي والاجتهاد في طلب الخير، فعليه أن يستمد العون من ربه علىٰ ذلك، وأن يعلم أنه لا يقدر علىٰ ذلك إلا هو؛ فيسأله توفيقه مسألة المضطر، ويعوذ به من خذلانه عياذ الملهوف، فلا عاصم من غضبه وأسباب سخطه إلا هو، ولا سبيل إلىٰ طاعته ومرضاته إلا بمعونته، وبهذا جاء التوجيه النبوي الكريم، قال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**دَعَواتُ المَكْروب: اللَّهُمَّ رحمتَك أرجو، فلا تَكِلْني إلىٰ نفسي طَرْفَةَ عين، وأَصلِح لي شَأني كلَّه، لا إله إلا أنتَ**»(١). أي لا تفوض أمري إلىٰ نفسي لحظة قليلة قدر ما يتحرك البصر، فإن من سلب التوفيق لم يملك نفسه، ولم يأمن أن يضيع الطاعات ويتبع الشهوات، فينبغي لكل مؤمن أن يكون هذا الخوف في باله واعتباره.

(١) تقدم تخريجه صفحة ٣٦.

قال ابنُ القيّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أجمع العارفون بالله أنَّ التوفيق هو أن لا يَكِلَكَ الله إلىٰ نفسك، وأن الخذلان هو أن يُخْلِيَ بينك وبين نفسك)(١).

ومن أدعيته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللهم إني أَعوذ بعزَّتِكَ أَن تُضِلَّني**»(٢) أي تهلكني بعدم التوفيق إلىٰ الرشاد والهداية والسداد وفي معاجم اللغة: ضل الشيء ضاع وهلك، وأضله إذا لم يوفقه للرشاد(٣).

وتأمل حال شيخ الإسلام ابن تيمية كيف كان يصنع إذا صعبت عليه مسألة من مسائل العلم؟ يحكي عنه تلميذه ابن عبد الهادي (المتوفىٰ: ٧٤٤هـ) فيقول: كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: (ربما طالعتُ علىٰ الآية الواحدة نحو مائة تفسير، ثم أسأل الله الفهم وأقول: يا معلم آدم وإبراهيم علمني، وكنت أذهب إلىٰ المساجد المهجورة ونحوها، وأمرغ وجهي في التراب وأسأل الله تعالىٰ وأقول: يا معلم إبراهيم فهمني!)(٤).

السبب الثاني: عدم الاغترار بالعقل والذكاء: التوفيق لا يستغني عنه أحد، وهذا يدعو إلىٰ ترك الاغترار بالعقل والاعتماد عليه، فكم من ذكي أضلَّه اللهُ علىٰ علم، وتأمل هذا المعنىٰ في أذكياء الكفار وفرق الضلال، فما أغنت عنهم عقولُهم؟!،

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٤١٥).

(٢) رواه مسلم (٢٧١٧).

(٣) انظر مختار الصحاح (ص: ١٨٥).

(٤) انظر كتاب رأس الحسين (ص: ١٧٦) لشيخ الإسلام ابن تيمية. تحقيق ودراسة: الدكتور السيد الجميلي.

وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية (ت: ٧٢٨هـ) عن بعض المتكلمين: (إذا نَظَرْت إليهم بِعَيْنِ الْقَدَرِ - والحيرة مستولية عليهم، والشيطان مستحوذ عليهم - رَحِمْتَهُمْ ورفقْت بهم، أُوتُوا ذكاءً وما أُوتوا زكاءً، وَأُعْطُوا فُهُومًا، وَمَا أُعْطُوا عُلُومًا، وأُعطوا سمعًا وأبصارًا وأفئدة ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٢٦﴾ [سورة الأحقاف: ٢٦].

ومن كان عليمًا بهذه الأمور: تَبَيَّنَ له بذلك حذق السلف وعلمهم وخبرتهم، حيث حذروا عن الكلام ونهوا عنه، وذمُّوا أهله وعابوهم، وعلم أن من ابتغىٰ الهدىٰ في غير الكتاب والسنة لم يزدد إلا بعدًا)(١).

ويُعَد ابن الراوندي(٢) واحدا من الذين أعجبوا بعقولهم فضلوا وأضلوا، فلم يكن في عصره مثله في الذكاء، وكان أول أمره حسن السيرة، كثير الحياء، ثم انسلخ من ذلك لأسباب. وقد حكي عن جماعة أنه تاب عند موته.

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٥/ ١١٩).

(٢) الريوندي أبو الحسن أحمد بن يحيىٰ بن إسحاق الملحد، عدو الدين، أبو الحسن أحمد بن يحيىٰ بن إسحاق الريوندي، صاحب التصانيف في الحط علىٰ الملة، وكان يلازم الرافضة والملاحدة، فإذا عوتب، قال: إنما أريد أن أعرف أقوالهم قال ابن الجوزي: كنت أسمع عنه بالعظائم، حتىٰ رأيت له ما لم يخطر علىٰ قلب، ورأيت له كتاب (نعت الحكمة)، وكتاب (قضيب الذهب)، وكتاب (الزمردة)، وكتاب (الدامغ)؛الذي نقضه عليه الجبائي.. قال القاضي أبو علي التنوخي: كان ابن الراوندي ملازم أهل الإلحاد، فإذا عوتب في ذلك قال: إنما أردت أن أعرف مذاهبهم، ثم إنه كاشف وناظر، ويقال إن أباه =

ومن أقواله: في القرآن لَحْن. ومن أقواله: يقولون: لا يأتي أحد بمثل القرآن، فهذا إقليدس لا يأتي أحد بمثله، وكذلك بطليموس.

ذكر الحافظ الذهبي (ت: ٧٤٨هـ) هذا الكلام في ترجمته، ثم علق عليه بقوله: (لعن الله الذكاء بلا إيمان، ورضي الله عن البلادة مع التقوىٰ)(١).

ورحم الله أبا إسحاق الإلبيري الشاعر الأندلسي (ت: ٤٦٠ هـ) الذي يقول في قصيدة يوصي فيها ابنَه بالسعي لطلب العلم:

إِذَا مَا لَمْ يُفِدْكَ الْعِلْمُ خَيْرًا ... فَخَيْرٌ مِنْهُ أَنْ لَوْ قَدْ جَهِلْتَا

وَإِنْ أَلْقَاكَ فَهْمُكَ فِي مَهَاوٍ ... فَلَيْتَكَ ثُمَّ لَيْتَكَ مَا فَهِمْتَا(٢)

السبب الثالث: الهِمَّة وصِدْق العزيمة: علىٰ قدر نية العَبْد وهمته وَمرَاده ورغبته يكون توفيقه سُبْحَانَهُ وإعانته، والخذلان ينزل عَلَيْه علىٰ حسب ذلك، وقد

= كان يهوديا، فأسلم هو. وقال بعض اليهود: يقول للمسلمين لا يفسدن عليكم هذا كتابكم كما أفسد أبوه علينا التوراة،

ومن شعره:

محن الزمان كثيرة ما تنقضي ... وسرورها يأتيك كالأعياد

ملك الأكارم فاسترق رقابهم ... وتراه رقا في الأعاد

هلك ابن الراوندي وله ست وثلاثون سنة مع ما انتهىٰ إليه من التوغل في المخازي، وذلك في سنة ثمان وتسعين ومائتين. ثم إنه كاشف، وناظر، وأبرز الشبه والشكوك. انظر سير أعلام النبلاء (١٤/ ٥٩) الأعلام للزركلي (١/ ٢٦٧) تاريخ بغداد وذيوله ط العلمية (٢١/ ٥٧).

(١) انظر سير أعلام النبلاء (١١/ ٤٠).

(٢) ديوان أبي إسحاق الإلبيري (ص: ٢٧).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ﴾ [سورة النساء:٣٥]، فجعل النية سبب التوفيق.

من أقوال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

كل يوم يزداد يقيني أن التوفيق معقودٌ بالنيّة السليمة، وأن أصحاب النوايا الصادقة ستعود آثارها عليهم بالخير الوفير والتوفيق والفتوح ولو بعد حين، ثم أنها ستبلغ بصاحبها في الجنّة درجة عليّة وما ذلك بمزيدٍ من صلاةٍ ولا صيام ولكن بسلامة هذا القلب.

من علامات وآثار التوفيق

من جليل نعم الله، والتي تخفىٰ علىٰ كثير من الخلق: نعمة التوفيق؛ إذ هو منحة من الكريم لا تسدىٰ لكل أحد، ولا يقدر عليها إلا من وفقه الله لها، قال شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [سورة هود:٨٨].

۞ وللتوفيق علامات تدل عليه:

فأول علامات التوفيق: أن يوفقك الله للإيمان والإسلام، فهي أكبر النعم وأولاها وأعلاها، وهي أجل النعم وأعظمها ولا يفوقها نعمة؛ لأنه محض اختيار من الله لك من بين عالم يموج بالكفر .. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [سورة الحجرات:١٧] .. ولولا الإيمان لما صلح عمل ولا قبلت قربة ولا طاعة لأن الشرك محبط لجميع الأعمال كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [سورة الأنعام:٨٨]، ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [سورة الزمر:٦٥] .. وقال سبحانه عن أهل الكفر: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [سورة الفرقان:٢٣] .. فينبغي للعبد أن يقدر هذه النعمة قدرها ويجتهد في شكر الله عليها.

ومن التوفيق: أن يوفقك الله للحرص علىٰ العلم والتفقه في دينه فتتعلم الأحكام، وتعرف الحلال والحرام، وتبحث عن مرضاة الله، وأن تتلذذ بطلب العلم وحضور حلقه ومجالسه، وتستأنس بسماعه، ولا تتضجر وتنفر بل تسعىٰ إليه وتطلب الزيادة منه؛ ففي الحديث الصحيحين أنه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين**»(١).

ومن التوفيق: أن يوفقك الله لعمل الخير بكل أشكاله وعلىٰ اختلاف أنواعه:

فيجعل لسانك ذاكرا، تتنقل من ذكر إلىٰ ذكر، ومن قرآن إلىٰ استغفار إلىٰ تهليل إلىٰ تسبيح.

وأن يوفقك للأعمال المالية من صدقات وزكوات ونفقات، وكفالة أيتام، وإحسان للفقراء والأرامل والمساكين، واستعمال مالك في بناء المساجد وحفر الآبار وطباعة المصاحف وفعل الخيرات.

وأن يوفقك للأعمال البدنية من صلوات وصيام وحج وجهاد، ومساعدة المحتاجين، وإعانة الضعفاء.

وفي حديث أبي بكرة: أن رجلا قال: يا رسول الله! أي الناس خير؟ قال: «**من طال عمره وحسن عمله**»(٢).

---

(١) رواه البخاري (٧١) ومسلم (١٠٣٧).

(٢) رواه الترمذي (٢٣٢٩) وأحمد (١٧٦٩٨) والطبراني في الأوسط (١٤٤١) والبيهقي (٥١٢) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٢٩٦).

ومن علامات التوفيق: أن يوفقك الله لنشر الخير والدين، والدعوة إلىٰ الله ودلالة الخلق عليه وتحبيبه إليهم؛ وتحبيبهم إليه، فإن هذه مهمة الأنبياء والرسل: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [سورة فصلت: ٣٣].

ومن علامات التوفيق: أن يوفقك الله لمحاسبة نفسك مرة بعد مرة، فتجدد نيتك وتصححها، وتحسن أعمالك وتتقنها، وتنظر في أخطائك فتصلحها، كما روي عنه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**الكيس من دان نفسه**» أي حاسبها «**وعمل لما بعد الموت**»(١).

وقال عمر: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم، وتزينوا للعرض الأكبر، يومئذ تعرضون لا تخفىٰ منكم خافية»(٢).

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٥٩) وأحمد (١٧١٢٣) وابن ماجه (٤٢٦٠) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٤٣٠٥).

(٢) رواه الترمذي (٢٤٥٩) وابن أبي شيبة (٣٤٤٥٩) وأبو نعيم في الزهد والرقائق وابن المبارك في والزهد (٣٠٦) قال الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة (٣/ ٣٤٦)

موقوف علقه ابن الجوزي في "تاريخ عمر بن الخطاب" (ص ١٧٦ - ١٧٧) عن ثابت بن حجاج قال: قال عمر: فذكره. وقد وصله أبو نعيم في "حلية الأولياء" (١/ ٥٢) من طريق جعفر بن برقان عن ثابت بن حجاج به. وإسناده جيد في "حلية الأولياء" (١/ ٥٢) من طريق جعفر بن برقان عن ثابت بن حجاج به. وإسناده جيد؛ إن كان ثابت سمعه من عمر؛ فإن صورته صورة المعلق المنقطع، وقد ذكر له الحافظ في "التهذيب" رواية عن بعض الصحابة ليس =

ومن علامات التوفيق: أن يوفق الله قلبك للتعلق به سبحانه، فترضىٰ علىٰ أقداره، وتشكره علىٰ نعمه وأفضاله، وتقوم بواجب عبادته وحق طاعته، وتتوكل عليه وتنيب إليه، وتطرح قلبك بين يديه، فيحميه من التعلق بالدنيا والخلق، بل ترىٰ الناس كلهم إنما هم آلات بين يديه يجري بهم أقداره، كما قال الشاطبي:

يعد جميع الناس مولىٰ لأنهم ... علىٰ ما قضاه الله يجرون أفعلا[1]

فالله سبحانه وحده حسبه وكافيه، وهو سبحانه مالك أمره والمتصرف فيه، نافذ فيه حكمه، لا يرد أحد قضاءه، ولا يعقب أحد علىٰ حكمه، ولا يغلب أحد أمره ..

= منهم عمر، بل إن البخاري وابن أبي حاتم لم يذكرا له رواية إلا عن بعض التابعين، ولذلك أورده ابن حبان في أتباع التابعين من كتابه "الثقات" (٦/ ١٢٧) وقال: (روىٰ عن جماعة من التابعين). والله أعلم. ورواه ابن عساكر في "تاريخ دمشق" (١٣/ ٥٨/ ١) من طريق أخرىٰ عن مالك بن مغول بلاغا عن عمر نحوه. وعلق الفقرة الأولىٰ منه الحكيم الترمذي في "كتاب الأكياسوالمغترين" (٣١) عن عمر موقوفا دون إسناد.

(١) انظر متن الشاطبية = حرز الأماني ووجه التهاني في القراءات السبع (ص: ٨) والإمام الشاطبي هو أبو القاسم بن فيرة بن خلف بن أحمد الشاطبي الأندلسي الرعيني الضرير. ولد في آخر سنة ٥٣٨ هجرية بشاطبة و توفّي في يوم ٢٨ جمادىٰ الآخرة سنة ٥٩٠ هجرية، ودفن بمقبرة القاضي الفاضل بالقرافة الصغرىٰ بسفح جبل المقطم بالقاهرة. وكان عالما بالحديث والتفسير واللغة، قال ابن خلكان: كان إذا قرئ عليه صحيح البخاري ومسلم والموطأ، تصحح النسخ من حفظه والرعينيّ نسبة إلىٰ ذي رعين أحد أقيال اليمن. انظر سير أعلام النبلاء (١٥/ ٤٠١) و معرفة القراء الكبار علىٰ الطبقات والأعصار (ص: ٣١٢) والأعلام للزركلي (٥/ ١٨٠).

بل ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن. فهمه أن يحقق عبوديته لله، ليحقق الله كفايته له: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [سورة الزمر:٣٦]، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [سورة الطلاق:٢-٣].

ومن علامات توفيق الله للإنسان: أن يجعل الآخرة أكبر همه ومبلغ علمه، ولا يجعل الدنيا همه وشغله وغايته، وإنما هي ممر لدار المقر، ومعبر يعبر عليه إلىٰ الآخرة والجنة دار الخلود، وهذا من نعم الله العظيمة، التي ينشرح بها الصدر وتطمئن بها النفس، ويجتمع بها الشمل؛ قال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه، وفرق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له**»(١).

ومن علامات التوفيق: أن يوفقك الله لسرعة التوبة والأوبة والإنابة والندم عند وقوع الخطأ أو الزلل، فإذا أذنب العبد أو عصىٰ وفقه لسرعة التوبة والرجوع إليه، فالتائب من الذنب كمن لا ذنب له، والتائب محبوب إلىٰ الله تعالىٰ، يسعىٰ في مراده ومحابه ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ۝٢٧﴾ [سورة النساء:٢٧]، وقال سبحانه: ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٣١﴾ [سورة النور:٣١]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ۝٢٢٢﴾ [سورة البقرة:٢٢٢].

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٦٥) وأحمد (٢١٥٩٠) وابن ماجه (٤١٠٥) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٥١٠ - ٢٢٢٢).

ومن علامات التوفيق: أن يوفقك الله لخدمة الناس والسعي لقضاء حوائجهم وتفريج كرباتهم، وبذل المعروف إليهم، وهذه نعمة لا تتيسر لكل أحد، وأحب الخلق إلىٰ الله أنفعهم لخلقه، من خلال جاهه، أو من خلال ماله، أو من خلال منصبه، أو حتىٰ بشفاعته لهم .. فهذا من أحب الناس إلىٰ الله.

وقد روىٰ الطبراني في معجمه الأوسط والصغير عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن رجلا جاء إلىٰ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا رسول الله! أي الناس أحب إلىٰ الله؟ فقال: «**أحب الناس إلىٰ الله أنفعهم للناس، وأحب الأعمال إلىٰ الله** عَزَّ وَجَلَّ، **سرور تدخله علىٰ مسلم، تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه دينا، أو تطرد عنه جوعا، ولأن أمشي مع أخ في حاجة، أحب إلي من أن أعتكف في هذا المسجد**، -يعني مسجد المدينة- **شهرا**»(١).

ومن علامات التوفيق: أن يتولىٰ الله أمرك، ولا يكلك إلىٰ نفسك، فقد أجمع العارفون علىٰ أن التوفيق أن لا يكلك الله إلىٰ نفسك، وأن الخذلان هو أن يخلي بينك وبين نفسك. وكان من دعاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ولا تكلني إلىٰ نفسي طرفة عين**»(٢). نسأل الله أن يتولانا برحمته ومنه، ويجعلنا من الموفقين.

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير (١٣٦٤٦) والأوسط (٦٠٢٦) والصغير (٨٦١) وحسنه الألباني في الجامع الصغير (١٧٦).

(٢) رواه النسائي (١٠٣٣٠) والبيهقي في شعب الإيمان (٧٤٦) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٥٨٢٠ - ١٩١٣).

أسباب تيسير العبادة والشعور بلذتها

التوفيق للطاعات والشعور بلذتها له أسباب كثيرة، من أعظمها ما ذكرت من معرفة الله ومحبته ودعائه.

١- معرفة الله تعالىٰ لا تحصل بالنظر في آياته المشاهدة فحسب، بل تحصل أيضا بالنظر في آياته الشرعية المقروءة، وذلك بتلاوة كتابه، وتدبره، والنظر في سنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي هي وحي منه تعالىٰ.

فكلما أدمن العبد النظر في آيات الله مع التدبر والتفهم؛ امتلأ قلبه من حبه، ومعرفته، والإقبال عليه، فيزيد بذلك إيمانه ويقينه، وهذا يسهل عليه العبادة مهما بدت شاقة، ولهذا بذل الصالحون أرواحهم ومهجهم في سبيل الله تعالىٰ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾ [سورة الأنفال: ٢-٤]، وكان أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولون: «هيا نؤمن ساعة، فيذكرون الله تعالىٰ»(١).

(١) قال الإمام البخاري صحيح البخاري (١/ ١١) وقال معاذ بن جبل: «اجلس بنا نؤمن ساعة».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (كان معاذ بن جبل يقول لرجل: اجلس بنا نؤمن نذكر الله تعالىٰ، وروىٰ أبو اليمان: حدثنا صفوان عن شريح بن عبيد، أن عبد الله بن رواحة كان يأخذ بيد الرجل من أصحابه، فيقول: قم بنا نؤمن ساعة، فنحن في مجلس ذكر)(١).

٢- وكلما تأمل العبد في آيات الله الكونية؛ امتلأ قلبه تعظيما وإجلالا لله، ولهذا دعانا الله لهذا النظر والتفكر. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾ [سورة الذاريات:٢١].

قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (من تفكر في نفسه عرف أنما لينت مفاصله للعبادة)(٢).

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥﴾ [سورة الأنعام:٧٥] وهذا يدل علىٰ أن النظر في الآيات الكونية يزيد الإيمان واليقين.

قال الإمام أبو بكر ابن العربي المالكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أمر الله تعالىٰ بالنظر في آياته، والاعتبار بمخلوقاته في أعداد كثيرة من آي القرآن، أراد بذلك زيادة في اليقين، وقولا في الإيمان، وتثبيتا للقلوب علىٰ التوحيد. وقد روىٰ ابن القاسم عن مالك؛ قال: قيل لأم الدرداء: ما كان أكثر شأن أبي الدرداء؟ قالت: كان أكثر شأنه التفكر. قيل له: أفترىٰ الفكر عملا من الأعمال؟ قال: نعم. هو اليقين.

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٧/ ٢٢٥) وانظر مصنف ابن أبي شيبة (٦/ ١٧٠) و شعب الإيمان للإمام البيهقي (١/ ١٥٢) (٤٩).

(٢) انظر العظمة لأبي الشيخ الأصبهاني (١/ ٢٣٤)و تفسير القرطبي (١٧/ ٤٠).

وقيل لابن المسيب، في الصلاة بين الظهر والعصر؟

فقال: ليست هذه عبادة؛ إنما العبادة الورع عما حرم الله، والفكر في أمر الله، وقال الحسن: تفكرُ ساعة خير من قيام ليلة) ا.هـ(١).

٣- ومن أسباب زيادة الإيمان، والإقبال علىٰ الله تعالىٰ، والفرح والأنس بعبادته: نظر العبد في نعم الله عليه في نفسه وأهله وماله، فذلك يثمر المحبة، ويدعو للشكر، ويخفف العبادة ويسهلها علىٰ النفس.

وكلما زادت محبة العبد لربه، شعر بلذة العبادة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (المحب يتلذذ بخدمة محبوبه، وتصرفه في طاعته، وكلما كانت المحبة أقوىٰ، كانت لذة الطاعة والخدمة أكمل، فليزن العبد إيمانه ومحبته لله بهذا الميزان، ولينظر هل هو ملتذ بخدمته، كالتذاذ المحب بخدمة محبوبه، أو متكرِّه لها، يأتي بها علىٰ السآمة والملل والكراهة؟ فهذا محك إيمان العبد، ومحبته لله.

قال بعض السلف: إني أدخل الصلاة فأحمل هم خروجي منها، ويضيق صدري إذا عرفت أني خارج منها.

ولهذا قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**جعلت قرة عيني في الصلاة**». ومن كانت قرة عينه في شيء؛ فإنه يود أن لا يفارقه، ولا يخرج منه؛ فإن قرة عين العبد: نعيمه، وطيب حياته به.

---

(١) أحكام القرآن (٢/ ٣٥١) للقاضي محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري الاشبيلي المالكي (المتوفىٰ: ٥٤٣هـ).

وقال بعض السلف: إني لأفرح بالليل حين يقبل، لما يلَذُّ به عيشي، وتقر به عيني، من مناجاة من أُحب، وخلوتي بخدمته، والتذلل بين يديه.

وأغتم للفجر إذا طلع، لما اشتغل به بالنهار عن ذلك !! فلا شيء ألذ للمحب من خدمة محبوبه وطاعته، وقال بعضهم: تعذبت بالصلاة عشرين سنة، ثم تنعمت بها عشرين سنة.

وهذه اللذة، والتنعم بالخدمة؛ إنما تحصل بالمصابرة، علىٰ التكرُّهِ والتعب، أولاً.

فإذا صبر عليه، وصدق في صبره: أفضىٰ به إلىٰ هذه اللذة.

قال أبو يزيد: سقت نفسىٰ إلىٰ الله، وهىٰ تبكىٰ، فما زلت أسوقها، حتىٰ انساقت إليه وهىٰ تضحك!! ولا يزال السالك عرضة للآفات، والفتور والانتكاس، حتىٰ يصل إلىٰ هذه الحالة.

فحينئذ؛ يصير نعيمه في سيره، ولذتُه في اجتهاده، وعذابه في فتوره ووقوفه، فترىٰ أشد الأشياء عليه، ضياع شيء من وقته، ووقوفه عن سيره، ولا سبيل إلىٰ هذا؛ إلا بالحب المزعج). ا.هـ[1].

٤- ومن أعظم أسباب التوفيق والإعانة: سؤال الله تعالىٰ، والالتجاء إليه، وقد علّم النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ معاذا أن يقول: «**اللهم أعني علىٰ ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**».

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص: ٣٢١).

روىٰ أبو داود والنسائي عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أَخَذَ بِيَدِهِ، وَقَالَ: «**يَا مُعَاذُ؛ وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ فَقَالَ أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَىٰ ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ**»(١).

٥- واعلم أنه لابد مع ذلك كله من الاجتهاد، والمثابرة، والصبر، فمن اجتهد وكابد ذاق لذة العبادة.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٢٠٠﴾ [سورة آل عمران:٢٠٠] وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾ [سورة العنكبوت:٦٩].

قال محمد بن المنكدر: (كابدت نفسي أربعين عامًا حتىٰ استقامت لي)(٢).

وقال ثابت البناني رَحِمَهُٱللَّهُ: (كابدت الصلاة عشرين سنة وتنعمت بها عشرين سنة)(٣).

٦- ومن أعظم ما يعينه علىٰ علاج ذلك، مداواة الشيء بضده؛ فمن كان بخيلا، فسبيله أن يجاهد نفسه علىٰ البذل، ويحملها علىٰ الجود بما عندها، وترك الشح، رويدا، رويدا. ومن كان جبانا، عالجها علىٰ التصبر والشجاعة، وحملها علىٰ قول

(١) رواه أبو داود (١٥٢٢) والنسائي (٩٨٥٧) وأحمد (٢٢١١٩) وابن حبان (٢٠٢١)وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٩٦٩ - ٣٠٦٣).

(٢) سير أعلام النبلاء (٥/ ٣٥٥) و تاريخ الإسلام (٣/ ٥٢٣) و صفة الصفوة (١/ ٣٧٨).

(٣) انظر حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٢/ ٣٢١) مختصر منهاج القاصدين (ص: ٣٥١) صفة الصفوة (٢/ ١٥٤)

الحق، وعمله، والتحمل في سبيله. ومن كان مهذارا، كثير الكلام، خواضا في الباطل، أمسك لسانه، وزمه، وراقبه. قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «**مَا يَكُنْ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ لاَ أَدَّخِرْهُ عَنْكُمْ، وَإِنَّهُ مَنْ يَسْتَعِفَّ يُعِفَّهُ اللهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ، وَلَنْ تُعْطَوْا عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ**»(١).

وعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ، وَإِنَّمَا الْحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ، مَنْ يَتَحَرَّىٰ الْخَيْرَ يُعْطَهُ، وَمَنْ يَتَّقِ الشَّرَّ يُوقَهُ**»(٢).

٧- ومن وسائل ذلك: ترك الذنوب والمعاصي، فإنها حجاب بين العبد وربه، وسبب من أسباب حرمان الرزق والخير.

قال رجل لإبراهيم بن أدهم: (إني لا أقدر علىٰ قيام الليل فصف لي دواء؟ فقال: لا تعصيه بالنهار، وهو يُقيمك بين يديه في الليل، فإن وقوفك بين يديه في الليل من أعظم الشرف، والعاصي لا يستحق ذلك الشرف)(٣).

وقال رجل للحسن البصري: (يا أبا سعيد: إني أبِيت معافىٰ، وأحب قيام الليل، وأعِدّ طهوري، فما بالي لا أقوم ؟ فقال الحسن: ذنوبك قيدتْك(٤).

---

(١) رواه البخاري (٦٤٧٠) ومسلم (١٠٥٣).

(٢) رواه الطبراني في الأوسط (٢٦٦٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٢٥٤)وأبو نعيم في الحلية (٥/ ١٧٤) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٣٢٨).

(٣) انظر فصل الخطاب في الزهد والرقائق والآداب (٧/ ٩٩).

(٤) إحياء علوم الدين (١/ ٣٥٦) و الأمور الميسرة لقيام الليل (ص: ٦٧) والغنية لطالبي طريق الحق (٢/ ١٥٥).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن العبد ليذنب الذنب فيحرم به قيام الليل، وصيام النهار)(١).

وقال الفضيل بن عياض: (إذا لم تقدر علىٰ قيام الليل، وصيام النهار، فأعلم أنك محروم مكبّل، كبلتك خطيئتك)(٢).

٨- ومما يعين علىٰ الطاعة وييسرها: قراءة ما أعد الله لأهلها من الثواب الجزيل والأجر العظيم، ومطالعة سير الصالحين، والوقوف علىٰ عبادات المحبين.

نسأل الله لنا ولكم التوفيق والسداد والنجاح والرشاد.

(١) المجالسة وجواهر العلم (٢/ ٢٦٢) لأبي بكر أحمد بن مروان الدينوري المالكي (المتوفى: ٣٣٣هـ) وإحياء علوم الدين (١/ ٣٥٥) لطائف المعارف لابن رجب (ص: ٤٦).

(٢) انظر حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٨/ ٩٦) و سير أعلام النبلاء ط الحديث (٧/ ٤٠١) صفة الصفوة (١/ ٤٢٩).

الوسائلُ المُعينةُ على التَّخَلُّصِ مِنَ اليأسِ والقُنوطِ والإحباطِ

(موسوعة الأخلاق والسلوك - الدرر السنية).

١- الإيمانُ بأسماءِ اللهِ وصِفاتِه: إنَّ العِلمَ والإيمانَ بأسماءِ اللهِ وصِفاتِه، وخاصَّةً التي تَدُلُّ علىٰ الرَّحمةِ والمَغفِرةِ والكرَمِ والجودِ، تَجعَلُ المُسلمَ لا ييأَسُ مِن رَحمةِ اللهِ وفَضلِه، فـ (إذا عَلِمَ العَبدُ، وآمَنَ بصِفاتِ اللهِ مِنَ الرَّحمةِ والرَّأفةِ، والتَّوبِ واللُّطفِ، والعَفوِ والمَغفِرةِ والسَّترِ، وإجابةِ الدُّعاءِ؛ فإنَّه كُلَّما وقَعَ في ذَنبٍ دَعا اللهَ أن يرحَمَه ويغفِرَ له ويتوبَ عليه، وطَمِع فيما عِندَ اللهِ مِن سَترٍ ولُطفٍ بعِبادِه المُؤمِنينَ، فأكسَبَه هذا رَجعةً وأوبةً إلىٰ اللهِ كُلَّما أذنَبَ، ولا يجِدُ اليأسُ إلىٰ قَلبِه سَبيلًا، كيف ييأسُ مَن يُؤمِنُ بصِفاتِ الصَّبرِ والحِلمِ؟! كيف ييأسُ مِن رَحمةِ اللهِ مَن عَلِمَ أنَّ اللهَ يتَّصِفُ بصِفةِ الكرَمِ والجودِ والعَطاءِ؟!).

٢- حُسنُ الظَّنِّ باللهِ ورَجاءُ رَحمَتِه: قال السَّفَّارينيُّ: (حالُ السَّلفِ رَجاءٌ بلا إهمالٍ، وخَوفٌ بلا قُنوطٍ. ولابُدَّ مِن حُسنِ الظَّنِّ باللهِ تعالىٰ)(١).

فعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: أنا عِندَ ظَنِّ عَبدي بي، وأنا مَعَه حَيثُ يذكُرُني، واللهِ، للهُ أفرَحُ بتَوبةِ عَبدِه مِن أحَدِكم**

(١) غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب (١/ ٤٦٦) لشمس الدين، أبو العون محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي (المتوفى: ١١٨٨هـ).

يجِدُ ضالَّتَه بالفلاةِ، ومَن تَقرَّب إليَّ شِبرًا تَقَرَّبتُ إليه ذِراعًا، ومن تَقَرَّب إليَّ ذِراعًا تَقَرَّبتُ إليه باعًا، وإذا أقبَل إليَّ يمشي أقبَلتُ إليه أُهَروِلُ»(١).

وعن أنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سَمِعتُ رَسول اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ: «**قال اللهُ تعالىٰ: يا ابنَ آدَمَ، إنَّك ما دَعَوتَني ورَجَوتَني غَفرتُ لك علىٰ ما كان مِنك ولا أُبالي. يا ابنَ آدَمَ لو بَلغَت ذُنوبُك عَنانَ السَّماءِ ثُمَّ استغفَرتَني غَفرتُ لك ولا أُبالي. يا ابنَ آدَمَ لو أَتيتَني بقُرابِ الأرضِ خَطايا ثُمَّ لَقِيتَني لا تُشرِكُ بي شَيئًا لأَتيتُك بقُرابِها مَغفِرةً**»(٢).

قال الشَّافِعِيُّ:

ولمَّا قَسا قَلبي وضاقَت مَذاهبي ... جَعَلتُ رَجائي دونَ عَفوِك سُلَّمَا

تعاظَمَني ذَنبي فلمَّا قَرَنتُه ... بعَفوِك رَبِّي كان عَفوُك أعظَما

فما زِلتَ ذا عَفوٍ عنِ الذَّنبِ لم تَزَلْ ... تجودُ وتَعفو مِنَّةً وتكَرُّمَا

فإن تَنتَقِمْ مِنِّي فلستُ بآيِسٍ ... ولو دَخَلَت نَفسي بجُرمي جَهنَّمَا

ولولاك لم يَغوَ بإبليسَ عابدٌ ... فكيف وقد أغوىٰ صَفيَّك آدَمَا

وإنِّي لآتي الذَّنبَ أعرِفُ قَدْرَه ... وأعلمُ أنَّ اللهَ يعفو تَرَحُّمَا(٣)

- وأنشَد بَعضُهم:

صَبرًا جَميلًا ما أقرَبَ الفَرَجَا ... مَن راقَبَ اللهَ في الأُمورِ نَجا

مَن صَدَقَ اللهَ لم يَنَلْه أذًىٰ ... ومَن رَجاه يكونُ حَيثُ رَجا

---

(١) رواه البخاري (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥).

(٢) رواه الترمذي (٣٥٤٠) وأحمد (٢١٤٧٢) والطبراني في الأوسط (٥٤٨٣) والبيهقي في شعب الإيمان (١٠١١) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٣٣٨).

(٣) انظر سير أعلام النبلاء ط الحديث (٨/ ٢٦٩).

٣- تعلُّقُ القَلبِ باللهِ والثِّقةُ به: لا بُدَّ للمَرءِ مِن أن يُعَلِّقَ قَلبَه باللهِ، ويجعَلَ الثِّقةَ به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في كُلِّ أحوالِه، مَعَ الاستِعانةِ باللهِ وحدَه، والإقرارِ له بالرَّجاءِ، وتَحقيقِ التَّوكُّلِ عليه، والتَّفويضِ إليه، واعتِرافِ العَبدِ له بأنَّ ناصيتَه في يدِه، يُصَرِّفُه كيف يشاءُ، وأنَّه ماضٍ فيه حُكمُه، عَدلٌ فيه قَضاؤُه، و(لا يليقُ بالمُسلمِ أن ييأسَ مِن رَوحِ اللهِ ولا يقنَطَ مَن رَحمتِه، ولا يكونُ نَظَرُه مَقصورًا علىٰ الأُمورِ المادِّيَّةِ والأسبابِ الظَّاهرةِ، بل يكونُ مُتَلفِّتًا في قَلبِه في كُلِّ وقتٍ إلىٰ مُسَبِّبِ الأسبابِ، إلىٰ الكريمِ الوهَّاب، مُتَحَرِّيًا للفرَجِ، واثِقًا بأنَّ اللهَ سَيجعَلُ بَعدَ العُسرِ يُسرًا، ومِن هنا ينبَعِثُ للقيامِ بما يقدِرُ عليه مِنَ النُّصحِ والإرشادِ والدَّعوةِ، ويقنَعُ باليسيرِ إذا لم يُمكِنِ الكثيرُ، وبزَوالِ بَعضِ الشَّرِّ وتَخفيفِه إذا تَعَذَّرَ غَيرُ ذلك)، وأنشَد بعضُهم:

هَـوِّنْ عليـك وكُـنْ برَبِّـك واثِقًـا ... فـأخو التَّوكُّـلِ شَـأنُه التَّهـوينُ[(١)]

وقال مُصطَفىٰ صادِق الرَّافِعيُّ: (أنت عَجَزتَ أيُّها الإنسانُ فأيقَنتَ أنَّك لا تَستَطيعُ أن تُغَيِّرَ أطوارَ الدُّنيا، ولكِن كيف نَسيتَ الذي يستَطيعُ أن يُغَيِّرَها، وهو يُغَيِّرُها كُلَّ طَرفةِ عَينٍ؟!).

٤- الأخذُ بالأسبابِ، وتَركُ الاستِسلامِ لليأسِ، وقد قال نَبيُّ اللهِ يعقوبُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لأولادِه لمَّا أبلغوه فَقْدَ ابنِه الثَّاني: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [سورة يوسف: ٨٧].

(١) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء (ص: ١٥٥) لمحمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (المتوفىٰ: ٣٥٤هـ).

٥- أن يكونَ العَبدُ بَينَ الخَوفِ والرَّجاءِ: قال تعالىٰ في مَدحِ عِبادِه المُؤمِنينَ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [سورة الأنبياء: ٩٠].

وقال ابنُ هانِئٍ: قال لي أبو عبدِ اللهِ أحمَدُ بنُ حَنبَلٍ: (ينبغي للمُؤمِنِ أن يكونَ رَجاؤُه وخَوفُه واحِدًا). وقال غَيرُه عنه: (فأيُّهما رَجَحَ صاحِبُه هَلَك)(١).

وهذا هو العَدلُ؛ ولهذا مَن غَلبَ عليه حالُ الخَوفِ أوقعَه في نَوعٍ مِنَ اليأسِ والقُنوطِ، إمَّا في نَفسِه وإمَّا في أُمورِ النَّاسِ، ومَن غَلبَ عليه حالُ الرَّجاءِ بلا خَوفٍ أوقَعَه في نَوعٍ مِنَ الأمنِ لمَكرِ اللهِ، إمَّا في نَفسِه وإمَّا في أُمورِ النَّاسِ.

٦- الإيمانُ بالقَضاءِ والقَدَرِ: إذا عَلمَ المَرءُ وأيقَنَ أنَّ كُلَّ ما حَصَل له هو بقَضاءِ اللهِ وقدَرِه استَراحَ قَلبُه، ولم يشعُرْ بيأسٍ ولا حُزنٍ لفواتِ شَيءٍ كان يرجوه، أو لوُقوعِ أمرٍ كان يحذَرُ منه؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة الحديد: ٢٢]، وقال سُبحانَه: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ۚ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [سورة التغابن: ١١].

قال ابنُ القَيِّمِ: (إذا جَرىٰ علىٰ العَبدِ مَقدورٌ يَكرَهُه، فله فيه سِتَّةُ مَشاهدَ؛ أحَدُها: مَشهَدُ التَّوحيدِ، وأنَّ اللهَ هو الذي قدَّرَه وشاءَه وخَلقَه، وما شاءَ اللهُ كان وما لم يشَأْ

(١) الآداب الشرعية والمنح المرعية (٢/ ٣٠) لابن مفلح و غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب (١/ ٤٦٢) التوكل (ص: ٨٠) لابن الفراء.

لم يكُنْ، الثَّاني: مَشهَدُ العَدلِ، وأنَّه ماضٍ فيه حُكمُه عَدلٌ فيه قَضاؤُه، الثَّالثُ: مَشهَدُ الرَّحمةِ، وأنَّ رَحمَتَه في هذا المَقدورِ غالِبةٌ لغَضَبِه وانتِقامِه، ورَحمتُه حَشْوُه، الرَّابعُ: مَشهَدُ الحِكمةِ، وأنَّ حِكمَتَه سُبحانَه اقتَضَت ذلك لم يُقدِّره سُدًى ولا قَضاه عَبَثًا، الخامِسُ: مَشهَدُ الحَمدِ، وأنَّ له سُبحانَه الحَمدَ التَّامَّ علىٰ ذلك مِن جَميعِ وُجوهِه، السَّادِسُ: مَشهَدُ العُبوديَّةِ، وأنَّه عَبدٌ مَحضٌ مِن كُلِّ وجهٍ تَجري عليه أحكامُ سَيِّدِه وأقضيتُه بحُكمِ كونِه مِلكَه وعَبدَه، فيُصرِّفُه تَحتَ أحكامِه القدَريَّةِ كما يُصَرِّفُه تَحتَ أحكامِه الدِّينيَّةِ؛ فهو مَحَلٌّ لجَرَيانِ هذه الأحكامِ عليه)(١).

وقال مُصطَفىٰ صادِق الرَّافِعيُّ: (سِرُّ سَعادةِ المُؤمِنِ علىٰ ما يجِدُ مِنَ الفقرِ والشَّقاءِ في هذه الحَياةِ: أنَّ في ضَميرِه مِن فِكرةِ الآخِرةِ وُجودًا إلهيًّا عَظيمًا، فيه الرِّضا الدَّائِمُ عنِ اللهِ، والصَّبرُ الدَّائِمُ علىٰ قَضاءِ اللهِ، والأمَلُ الدَّائِمُ في رَحمةِ اللهِ. فكُلُّ حِرمانِ الدُّنيا يذهَبُ في الرِّضا فلا حِرمانَ، وكُلُّ مَصائِبِها تَقَعُ في الصَّبرِ فتَتَحَوَّلُ مَعانيها، والأمَلُ الدَّائِمُ في رَحمةِ اللهِ قوَّةٌ للقوَّتَينِ).

وقال أيضًا: (لا يُمكِنُ أن تُرضيَك الدُّنيا كُلَّما أحبَبتَ، ولا بكُلِّ ما تُحِبُّ؛ فلستَ أنتَ العاصِمةَ في مَملكةِ اللهِ، ولكِنَّ المُمكِنَ أن تَرضىٰ أنتَ بما يُمكِنُ).

فينبَغي التَّفاؤُلُ والتَّسليمُ للقَضاءِ؛ قال أبو عَبدِ اللهِ القُرطُبيُّ: (ومَن سَلَّم للقَضاءِ أسفرَت عاقِبَتُه عنِ اليدِ البَيضاءِ)(٢).

---

(١) انظر الفوائد لابن القيم (ص: ٣٢).

(٢) تفسير القرطبي (١١/ ٣٨).

٧- الدُّعاءُ مَعَ الإيقانِ بالإجابةِ: اليأسُ داءٌ قَتَّالٌ، ولمَّا كانت هَواجِسُ الإنسانِ في أكثَرِ حالاتِه تَدعوه إلىٰ اليأسِ حينَ يُدرِكُ واقِعَه الظَّاهريَّ دونَ أن يمتَدَّ باستِشفافِه إلىٰ ما يطويه اللهُ مِن خَيرٍ سيُؤتي ثِمارَه عن قَريبٍ؛ فقد رَسَمَت سورةُ الشَّرحِ سُبُلًا لدَرءِ هذا اليأسِ القاتِلِ، وهو التَّوجُّهُ إلىٰ اللهِ بالدُّعاءِ والارتِكانِ كُلَّ الارتِكانِ إلىٰ عَونِ السَّماءِ، يقولُ اللهُ جَلَّ ذِكرُه: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾ [سورة الشرح:٧-٨]؛ ليدعوَ الإنسانَ إلىٰ أن يترُكَ واقِعَه المُظلمَ ويتَّجِهَ إلىٰ السَّماءِ راغِبًا داعيًا حَيثُ يجِدُ في عَونِها الفَرَجَ الواسِعَ مِنَ الفرجِ الضَّيِّقِ، والالتِجاءِ إلىٰ قُدرةِ اللهِ؛ مِمَّا يبعَثُ الطُّمَأنينةَ ويرُدُّ التَّشاؤُمَ إلىٰ التَّفاؤُلِ؛ لأنَّ صاحِبَ القُدرةِ القادِرة يستَجيبُ للمُضطَرِّ إذا دَعاه، فيكشِفُ السُّوءَ، فهو إذَن مَلاذُ اللَّائِذينَ، وغَوثُ المُستَغيثينَ.

وهذا نَبيُّ اللهِ يعقوبُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، لَمَّا عوتِبَ في تَذَكُّرِ يوسُفَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بَعدَ طولِ الزَّمانِ، وانقِطاعِ الأمَلِ، وحُصولِ اليأسِ في رُجوعِه، قال بلِسانِ المُؤمِنِ الواثِقِ في وعدِ اللهِ برَفعِ البَلاءِ عنِ الصَّابرينَ وإجابةِ دَعوةِ المُضطَرِّينَ: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨٦﴾ [سورة يوسف:٨٦].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عنِ النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لا يزالُ يُستَجابُ للعَبدِ، ما لم يدْعُ بإثمٍ أو قَطيعةِ رَحِمٍ، ما لم يستَعجِلْ**»(١).

(١) رواه مسلم (٢٧٣٥).

قال أبو العَبَّاسِ القُرطُبيُّ: (ينبَغي استِدامةُ الدُّعاءِ وتَركُ اليأسِ مِنَ الإجابةِ، ودوامُ رَجائِهما، واستِدامةُ الإلحاحِ في الدُّعاءِ؛ فإنَّ اللهَ يُحِبُّ المُلحِّينَ في الدُّعاءِ)(١).

فليلجَأِ العَبدُ إلىٰ مَنِ القُلوبُ بَينَ إصبَعَيه، وأزمَّةُ الأُمورِ بيدَيه، وانتِهاءُ كُلِّ شَيءٍ إليه علىٰ الدَّوامِ؛ فلعَلَّه أن يُصادِفَ ساعةً مِنَ السَّاعاتِ التي لا يُسألُ اللهُ فيها شَيئًا إلَّا أعطاه، فمَن أُعطيَ مَنشورَ الدُّعاءِ أُعطيَ الإجابةَ، فإنَّه لو لم يُرِدْ إجابَتَه لما ألهَمَه الدُّعاءَ.

والمَرءُ مَعَ إلحاحِه في الدُّعاءِ عليه أن يوقِنَ بأنَّ (النَّصرَ مَعَ الصَّبرِ، وأنَّ الفرَجَ مَعَ الكربِ، وأنَّ مَعَ العُسرِ يُسرًا)(٢).

- كثرةُ ذِكرِ اللهِ تعالىٰ؛ قال ابنُ القَيِّمِ: (إنَّه قوتُ القَلبِ والرُّوحِ، فإذا فقدَه العَبدُ صارَ بمَنزِلةِ الجِسمِ إذا حيل بَينَه وبَينَ قوَّتِه، وحَضَرتُ شَيخَ الإسلامِ ابنَ تيميَّةَ مَرَّةً صَلَّىٰ الفجرَ ثُمَّ جَلسَ يذكُرُ اللهَ تعالىٰ إلىٰ قَريبٍ مِن انتِصافِ النَّهارِ، ثُمَّ التَفتَ إليَّ وقال: هذه غَدوتَي، ولو لم أتَغَدَّ الغَداءَ سَقَطَت قوَّتي!)(٣).

- أن يرتَعَ قَلبُه في رياضِ القُرآنِ، وأن يستَضيءَ به في ظُلُماتِ الشُّبُهاتِ والشَّهَواتِ، وأن يتَسَلَّىٰ به عن كُلِّ فائِتٍ، ويتَعَزَّىٰ به عن كُلِّ مُصيبةٍ، ويستَشفيَ به مِن أدواءِ صَدرِه، فيكونُ جَلاءَ حُزنِه، وشِفاءَ هَمِّه وغَمِّه.

---

(١) موسوعة الأخلاق الإسلامية - الدرر السنية (٣/ ٤٦).

(٢) رواه أحمد (٢٨٠٣) والحاكم في المستدرك (٦٣٠٤) والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٤٣) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٨٠٦).

(٣) الوابل الصيب من الكلم الطيب (ص: ٤٢).

٨- الصَّبرُ عِندَ حُدوثِ البَلاءِ: وذلك أنَّ اللهَ سُبحانَه ذَمَّ اليائِسينَ مِن رَحمَتِه عِندَ حُصولِ البَلاءِ، واستثنىٰ مِنَ الذَّمِّ الصَّابرينَ علىٰ البَلاءِ، وجَعَل لهمُ الثَّوابَ العَظيمَ.

فقال تعالىٰ: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١١﴾ [سورة هود: ١٠-١١].

ونَهىٰ النَّبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عن تَمَنِّي المَوتِ بسَبَبِ البَلاءِ؛ فعن أَنَسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رَسولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**لا يتمَنَّيَنَّ أحَدُكمُ المَوتَ لضُرٍّ نَزَل به، فإن كان لا بُدَّ مُتَمَنِّيًا للمَوتِ فليقُلِ: اللَّهمَّ أحيِني ما كانتِ الحَياةُ خَيرًا لي، وتوفَّني إذا كانتِ الوفاةُ خَيرًا لي**»(١).

ومِمَّا يُعينُ علىٰ الصَّبرِ علىٰ أقدارِ اللهِ المُؤلِمةِ: مُلاحَظةُ حُسنِ الجَزاءِ، وانتِظارُ رَوحِ الفرَجِ، وتَهوينُ البَليَّةِ بعَدِّ أيادي المِنَنِ، وبذِكرِ سَوالِفِ النِّعَمِ.

٩- عَدَمُ التَّحَسُّرِ علىٰ ما فاتَ، وتَركُ القَلقِ علىٰ المُستَقبَلِ.

قال السَّعديُّ: (إيَّاك والتَّحَسُّرَ علىٰ الأُمورِ الماضيةِ التي لم تُقدَّرْ لك؛ مِن فقدِ صِحَّةٍ أو مالٍ أو عَمَلٍ دُنيويٍّ ونَحوِها، وليكُنْ هَمُّك في إصلاحِ عَمَلِ يومِك؛ فإنَّ الإنسانَ ابنُ يومِه، لا يحزَنُ لِما مَضىٰ، ولا يتَطَلَّعُ للمُستَقبَلِ حَيثُ لا ينفعُه التَّطَلُّعُ).

(١) رواه مسلم (٢٦٨٠).

وقال أيضًا: (مِنَ الأسباب الموجِبةِ للسُّرورِ وزَوالِ الهَمِّ والغَمِّ: السَّعيُ في إزالةِ الأسبابِ الجالبةِ للهُمومِ، وفي تَحصيلِ الأسبابِ الجالبةِ للسُّرورِ، وذلك بنِسيانِ ما مضىٰ عليه مِنَ المَكارِه التي لا يُمكِنُه رَدُّها، ومَعرِفتِه أنَّ اشتِغالَ فِكرِه فيها مِن بابِ العَبَثِ والمُحالِ، وأنَّ ذلك حُمقٌ وجُنونٌ، فيُجاهِدُ قَلبَه عنِ التَّفكُّرِ فيها، وكذلك يُجاهدُ قَلبَه عن قَلقِه لِما يستَقبلُه، مِمَّا يتَوهَّمُه مِن فقرٍ أو خَوفٍ أو غَيرِهما مِنَ المَكارِه التي يتَخَيَّلُها في مُستَقبَلِ حَياتِه، فيَعلمُ أنَّ الأُمورَ المُستَقبَلةَ مَجهولٌ ما يقَعُ فيها مِن خَيرٍ وشَرٍّ وآمالٍ وآلامٍ، وأنَّها بيَدِ العَزيزِ الحَكيمِ، ليسَ بيَدِ العِبادِ منها شَيءٌ إلَّا السَّعيُ في تَحصيلِ خَيراتِها، ودَفعِ مَضَرَّاتِها، ويَعلمُ العَبدُ أنَّه إذا صَرَف فِكرَه عن قَلقِه مِن أجلِ مُستَقبَلِ أمرِه، واتَّكل علىٰ رَبِّه في إصلاحِه، واطمَأنَّ إليه في ذلك، إذا فعَل ذلك اطمَأنَّ قَلبُه وصَلَحَت أحوالُه، وزال عنه هَمُّه وقَلَقُه)[1].

١٠- تَلمُّحُ سِيَرِ المُصطَفَينَ مِن عِبادِ اللهِ لمَعرِفةِ أنَّ مَعَ العُسرِ يُسرًا، وأنَّ مِنَ المِحَنِ تَأتي المِنَحُ:

فقد لاقىٰ الأنبياءُ والمُرسَلونَ وأتباعُهم مِن ضُروبِ البَلاءِ وألوانِ المِحَنِ ما يُضرَبُ المَثَلُ للنَّاسِ؛ فهؤلاء هم رُسُلُ اللهِ يُؤَدُّونَ رِسالتَه ويُبَلِّغونَ كلمَتَه، وما أيسَرَ أن يُسَهِّلَ اللهُ عليهم طَريقَ الرِّسالةِ، فيجذِبَ إليهمُ الأشياءَ دونَ عِنادٍ، ولكِنَّه جَلَّ ذِكرُه قد واجَهَهم بالصُّعوباتِ ليكونوا قُدوةً للنَّاسِ في الجِهادِ والجِلادِ، وقد تَحمَّل رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِن ضُروبِ الشَّدائِدِ ما تَحَمَّل، ولاقىٰ أصحابُه مَعَه بَعضَ

(١) الوسائل المفيدة للحياة السعيدة (ص: ٢٣).

ما لاقىٰ مِنَ العُسرِ، ومنهم مَن آثَرَ الصَّبرَ ومال إلىٰ التَّفاؤُلِ ارتِقابًا لتَحقيقِ وعدِ اللهِ، ومنهم مَن حَزَبه الضِّيقُ، فشَكا إلىٰ رَسولِ اللهِ بَعضَ ما يلقاه، فنَزَل القُرآنُ داعيًا للثَّباتِ، ومُناديًا بالصَّبرِ، وضارِبًا المَثَلَ الواقِعيَّ بما عانىٰ أولو العَزمِ مِنَ المُرسَلينَ؛ يقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [سورة البقرة:٢١٤].

وقد يشتَدُّ العُسرُ بالرَّسولِ وأصحابه فيُنزِلُ اللهُ كِتابَه مُبَشِّرًا باليُسرِ، ومُعَدِّدًا نِعَمَه السَّابقةَ علىٰ رَسولِ اللهِ حينَ شَرَحَ صَدرَه بالنُّبوَّةِ، ورَفعَ ذِكرَه في العالَمينَ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾﴾ [سورة الشرح:١-٨].

وإذا كان القُرآنُ الكريمُ في تَرتيبِه المُتَناسِقِ يُكمِلُ حَلَقاتِ المَعاني المُتَواشِجةِ إكمالًا يُدرِكُه البُصَراءُ بأساليبِ البَيانِ، فإنَّ التَّجاوُرَ بَينَ سورةِ الضُّحىٰ وسورةِ الشَّرحِ يُؤَكِّدُ حَقيقةَ التَّفاؤُلِ، ويُعلنُ تَعاقُبَ اليُسرِ والعُسرِ؛ فقد دَلَّتِ الآياتُ الكريمةُ في سورةِ الضُّحىٰ علىٰ هذه الحَقيقةِ الماثِلةِ؛ إذِ انقَطَعَ الوحيُ عن رَسولِ اللهِ حينًا مِنَ الدَّهرِ، فلقِيَ مِن ذلك الانقِطاعِ عناءً نَفسيًّا مُبَرِّحًا، وقد شَمَتَ به مِن أعدائِه مَن يتَشَفَّونَ بما يلقىٰ مِن صُعوباتٍ في طَريقِ دَعوتِه الكريمةِ، فكانت شَماتةُ الأعداءِ شِدَّةً أُخرىٰ تُضافُ إلىٰ الشِّدَّةِ الحادِثةِ مِن انقِطاعِ الوَحيِ؛ فنَزَل قَولُ اللهِ

عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥﴾ [سورة الضحى:١-٥] نَزَل هذا القَولُ الكريمُ ليُبَشِّرَ باليُسرِ بَعدَ العُسرِ، وبالفرَجِ بَعدَ الشِّدَّةِ، وبالرَّجاءِ بَعدَ اليأسِ، وقد ضَرَبَ الأمثِلةَ بما تقدَّمَ مِن حَياةِ الرَّسولِ؛ حَيثُ قال: ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ۝٨﴾ [سورة الضحى:٦-٨]، وفي خِتامِ السُّورةِ يقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ۝١١﴾ [سورة الضحى:١١]؛ ليكونَ الحَديثُ عن نِعمةِ اللهِ طارِدًا لليأسِ، مُؤَكِّدًا للأمَلِ؛ فإنَّ الذي يتَذَكَّرُ ما أسلَفَ اللهُ له في أمسِه مِن خالِصِ النِّعَمِ لا ييأسُ مِن غَدِه، بل يقيسُ الآتيَ علىٰ الغابرِ، فيرتاحُ.

١١- الزُّهدُ في الدُّنيا: فمِن أسبابِ اليأسِ والقُنوطِ الأساسيَّةِ تعَلُّقُ القَلبِ بالدُّنيا والفرَحُ بأخذِها، والحُزنُ والتَّأسُّفُ علىٰ فواتِها بكُلِّ ما فيها، مِن جاهٍ وسُلطانٍ وزَوجةٍ وأولادٍ، ومالٍ وعافيةٍ ... إلخ، فاعلَمْ أنَّ اللهَ سُبحانَه يُعطي الدُّنيا لمَن لا يُحِبُّ ومَن يُحِبُّ، ولا يُعطي الآخِرةَ إلَّا لمَن أحَبَّ، وقد مَنَعَ أحَبَّ الخَلقِ إليه وأكرَمَهم عليه نَبيَّنا مُحَمَّدًا صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ الدُّنيا وما فيها، فخَرَجَ وما مَلأ بَطنَه مِن خُبزِ البُرِّ ثَلاثَ أيَّامٍ مُتَواليات! وعلىٰ المَرءِ أن يعلمَ أنَّه لن يأخُذَ أكثَرَ مِمَّا قُدِّرَ له، فلا ييأسْ ولا يقنَطْ لفواتِ شَيءٍ(١).

(١) انظر موسوعة الأخلاق الإسلامية - الدرر السنية (٣/ ٤٦، بترقيم الشاملة آليا).

١٢- بَثُّ الهَمِّ قَبلَ استِحكامِه والوُصولِ إلىٰ مَرحَلةِ الإحباطِ:

وقد قيل: ولابُدَّ مِن سِرٍّ إليك أبُثُّه ... ففي نَفثةِ المَصدورِ بَعضُ شِفائِه

ويُستَحَبُّ تَسليةُ المُصابِ والمَهمومِ، وقد قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾﴾ [سورة الشورى:٨]، وإنَّما قيل هذا لرَسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَسليةً له عَمَّا كان ينالُه مِنَ الهَمِّ بتَوليةِ قَومِه عنه، وأمرًا له بتَركِ إدخالِ المَكروهِ علىٰ نَفسِه مِن أجلِ إدبارِ مَن أدبَرَ عنه منهم. وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [سورة يوسف:١٩]، وهذا وإن كان خَبَرًا مِنَ اللهِ عن يوسُفَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فإنَّه تَذكيرٌ مِنَ اللهِ لنَبيِّه مُحَمَّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتَسليةٌ منه له عَمَّا كان يلقىٰ مِن أقرِبائِه وأنسابِه المُشرِكينَ مِنَ الأذىٰ، يقولُ تعالىٰ ذِكرُه له: فاصبِرْ يا مُحَمَّدُ علىٰ ما نالك في اللهِ؛ فإنِّي قادِرٌ علىٰ تَغييرِ ما ينالك به هؤلاء المُشرِكونَ، كما كُنتُ قادِرًا علىٰ تَغييرِ ما لقي يوسُفُ مِن إخوتِه، فمَصيرُ أمرِك وأمرِهم إلىٰ عُلوِّك عليهم وإذعانِهم لك.

ويُستَحَبُّ مُحادَثةُ المَهمومِ بما يُخَفِّفُ عنه ويُؤنِسُ وحشَتَه، وقد دَخَل عُمَرُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ علىٰ النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فوجَدَه واجِمًا ساكِتًا، فقال: «لأقولَنَّ شَيئًا أُضحِكُ النَّبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ...»(١)، قال النَّوويُّ: (فيه استِحبابُ مِثلِ هذا، وأنَّ الإنسانَ إذا رَأىٰ صاحِبَه مَهمومًا حَزينًا يُستَحَبُّ له أن يُحَدِّثَه بما يُضحِكُه أو يشغَلُه ويُطَيِّبُ نَفسَه)(٢).

(١) رواه مسلم (١٤٧٨).

(٢) شرح النووي علىٰ مسلم (١٠/ ٨١).

١٣- أن يُفسِحَ في الأمَلِ، كما قال الطُّغرائيُّ[١]:

أُعَلِّلُ النَّفسَ بالآمالِ أرقُبُها ... ما أضيقَ العَيشَ لولا فُسحةُ الأمَلِ

والمَعنىٰ: أُمَنِّي النَّفسَ وأُعَلِّلُها برِقبةِ الآمالِ، وانتِظارِ بُلوغِها وإدراكِها؛ فيتَّسِعُ لها ما ضاقَ عليها مِنَ الدَّهرِ والعَيشِ، ثُمَّ قال: ما أضيقَ الدَّهرَ لولا أنَّ فُسحةَ الأمَلِ تَوسِعُه! وفي الآمالِ راحةٌ للنُّفوسِ ... وقال بَعضُهم: نِعمَ الرَّفيقُ الأمَلُ، وإن لم

(١) هو العميد، فخر الكتاب، مؤيد الدين أبو إسماعيل الحسين بن علي بن محمد بن عبد الصمد الأصبهاني، المنشئ، الشاعر، ذو باع مديد في الصناعتين، المعروف بالطغرائي؛ كان غزير الفضل لطيف الطبع، فاق أهل عصره بصنعة النظم والنثر.

ذكره أبو سعد ابن السمعاني في نسبة المنشئ من كتاب " الأنساب "، وأثنىٰ عليه، وأورد قطعة من شعره في صفة الشمعة، وذكر أنه قتل في سنة خمس عشرة وخمسمائة. والطغرائي المذكور له ديوان شعر جيد، ومن محاسن شعره قصيدته المعروفة بلامية العجم، وكان عملها ببغداد في سنة خمس وخمسمائة يصف حاله ويشكو زمانه، وهي التي مطلعها:

أصالة الرأي صانتني عن الخطل ... وحلية الفضل زانتني لدىٰ العطل

وهي طويلة تنيف علىٰ ستين بيتا، وقالوا فيها: إنها من غرر القصائد، ودرر الفوائد، لما اشتملت عليه من لطيف الغزل، واحتوت عليه من الحكم والامثال، ومما يستجاد منها قوله:

يا واردا سؤر عيش كله كدر ... أنفقت صفوك في أيامك الأول

فيم اقتحامك لج البحر تركبه ... وأنت يكفيك منه مصة الوشل

ملك القناعة لا يخشىٰ عليه ولا ... يحتاج فيه إلىٰ الانصار والخول

ترجو البقاء بدار لا ثبات لها ... فهل سمعت بظل غير منتقل

انظر سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١٩/ ٤٥٤) ووفيات الأعيان (٢/ ١٨٥).

يَبلُغْك فقد آنَسَك، واستَمتَعتَ به ... وقد أخَذَ قَولَ الطُّغرائيِّ العِمادُ الكاتِبُ، وقال:

وما هذه الأيَّامُ إلَّا صَحائِفٌ ... يُؤَرَّخُ فيها ثُمَّ يُمحىٰ ويُمحَقُ

ولم أرَ شَيئًا مِثلَ دائِرةِ المُنىٰ ... تُوسِعُها الآمالُ والعُمرُ ضَيِّقُ

طرق النجاح والتوفيق في الحياة

راحة القلب وطمأنينته، وسروره وزوال همومه وغمومه، مطلوب كل أحد، وبه تحصل الحياة الطيبة، ويتم السرور والابتهاج، ولذلك أسباب دينية، وأسباب طبيعية، وأسباب عملية، ولا يمكن اجتماعها كلها إلا للمؤمنين، وأما من سواهم فإنها وإن حصلت لهم من وجه فاتتهم من وجوه أخرىٰ.

وبين يديك جملة من الأسباب لهذا المطلب الأعلىٰ الذي يسعىٰ له كل أحد، فمنهم من أصاب كثيراً منها فعاش عيشة هنيئة، وحيي حياةً طيبة، ومنهم من أخفق فيها كلها فعاش عيشة الشقاء، وحيي حياة التُعساء، ومنهم من هو بين بين، بحسب ما وفق له.

❁ فمن تلك الأسباب والوسائل:

١- الإيمان والعمل الصالح....

وهو أعظم الأسباب وأصلها وأُسها؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [سورة النحل:٩٧] فأخبر تعالىٰ ووعد من جمع بين الإيمان والعمل الصالح بالحياة الطيبة والجزاء الحسن في الدنيا والآخرة.

وسبب ذلك واضح: فإن المؤمنين بالله - الإيمان الصحيح المثمر للعمل الصالح المصلح للقلوب والأخلاق والدنيا والآخرة - معهم أصول وأُسس يتلقون بها جميع ما يرد عليهم من أسباب السرور والابتهاج، وأسباب القلق والهم والأحزان..

فيتلقون المحاب والمسارّ بقبولٍ لها، وشكر عليها، واستعمال لها فيما ينفع، فإذا استعملوها علىٰ هذا الوجه أحدث لهم من الابتهاج بها، والطمع في بقائها وبركاتها، ورجاء ثواب الشاكرين، أموراً عظيمة تفوق بخيراتها وبركاتها هذه المسرَّات التي هذه ثمراتها، ويتلقون المكاره والمضار والهم والغم بالمقاومة لما يمكنهم مقاومته، وتخفيف ما يمكنهم تخفيفه، والصبر الجميل لما ليس لهم منه بُدٌّ، وبذلك يحصل لهم من آثار المكاره من المقاومات النافعة، والتجارب والقوة، ومن الصبر واحتساب الأجر والثواب أمورٌ عظيمة تضمحل معها المكاره، وتحل محلها المسار والآمال الطيبة، والطمع في فضل الله وثوابه، كما عبَّر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن هذا في الحديث الصحيح فقال: «**عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كلَّه خير، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمن**»(١).

فأخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن المؤمن يتضاعف غنمه وخيره وثمرات أعماله في كل ما يطرقه من السرور والمكاره.

---

(١) رواه مسلم (٢٩٩٩).

٢- الإحسان إلى الخلق بالقول والفعل وأنواع المعروف...

وهذا من الأسباب التي تزيل الهم والغم والقلق، وبها يدفع الله عن البَرِّ والفاجر الهموم والغموم بحسبها، ولكن للمؤمن منها أكمل الحظ والنصيب، ويتميز بأن إحسانه صادر عن إخلاص واحتساب لثوابه فيُهون الله عليه بذل المعروف لما يرجوه من الخير، ويدفع عنه المكاره بإخلاصه واحتسابه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾ [سورة النساء:١١٤] ومن جملة الأجر العظيم: زوال الهم والغم والأكدار ونحوها.

٣- ومن أسباب دفع القلق الناشئ عن توتر الأعصاب، واشتغال القلب ببعض المكدرات:

الاشتغال بعمل من الأعمال أو علم من العلوم النافعة، فإنها تلهي القلب عن اشتغاله بذلك الأمر الذي أقلقه، وربما نسي بسبب ذلك الأسباب التي أوجبت له الهم والغم، ففرحت نفسه وازداد نشاطه، وهذا السبب أيضاً مشترك بين المؤمن وغيره، ولكن المؤمن يمتاز بإيمانه وإخلاصه واحتسابه في اشتغاله بذلك العلم الذي يتعلمه أو يعلمه، وبعمل الخير الذي يعمله.

وينبغي أن يكون الشغل الذي يشتغل فيه مما تأنس به النفس وتشتاقه فإن هذا أدعىٰ لحصول المقصود النافع والله أعلم.

٤- ومما يُدفع به الهم والقلق اجتماع الفكر كله على الاهتمام بعمل اليوم الحاضر:

وقطعه عن الاهتمام بما في الوقت المستقبل، وعن الحزن علىٰ الوقت الماضي، ولهذا استعاذ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الهم والحزن، فالحزن علىٰ الأمور

الماضية التي لا يمكن ردها ولا استدراكها، والهم الذي يحدث بسبب الخوف من المستقبل، فيكون العبد ابن يومه، يجمع جِدَّه واجتهاده في إصلاح يومه ووقته الحاضر، فإن جمع القلب علىٰ ذلك يُوجب تكميل الأعمال، ويتسلىٰ به العبد عن الهم والحزن، والنبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إذا دعا بدعاء أو أرشد أمته إلىٰ دعاء، فهو يحث مع الاستعانة بالله والطمع في فضله علىٰ الجد والاجتهاد في التحقق لحصول ما يدعو بحصوله، والتخلي عما كان يدعو لدفعه؛ لأن الدعاء مقارنٌ للعمل، فالعبد يجتهد فيما ينفعه في الدين والدنيا، ويسأل ربه نجاح مقصده، ويستعينه علىٰ ذلك كما قال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**احرص علىٰ ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإذا أصابك شيءٌ فلا تقل لو أني فعلت كذا كان كذا وكذا، ولكن قل: قدَّر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان**»(١) رواه مسلم.

جمع صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بين الأمر بالحرص علىٰ الأمور النافعة في كل حال، والاستعانة بالله وعدم الانقياد للعجز الذي هو الكسل الضار، وبين الاستسلام للأمور الماضية النافذة، ومشاهدة قضاء الله وقدره، وجعل الأمور قسمين:

١- قسم يمكن العبد السعي في تحصيله أو تحصيل ما يمكن منه أو دفعه أو تخفيفه فهذا يبذل فيه العبد مجهوده ويستعين بمعبوده.

٢- وقسم لا يمكن فيه ذلك فهذا يطمئن له العبد ويرضىٰ ويُسلم.

ولا ريب أن مراعاة هذا الأصل سبب للسرور وزوال الهم والغم.

---

(١) رواه مسلم (٢٦٦٤).

٥- ومن أكبر الأسباب لانشراح الصدر وطمأنينته الإكثار من ذكر الله:

فإن لذلك تأثيراً عجيباً في انشراح الصدر وطمأنينته، وزوال همه وغمه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [سورة الرعد:٢٨] فلذكر الله أثرٌ عظيمٌ في حصول هذا المطلوب لخاصيته، ولما يرجوه العبد من ثوابه وأجره.

٦- ومن الأسباب الموجبة للسرور وزوال الهم والغم، السعي في إزالة الأسباب الجالبة للهموم:

وفي تحصيل الأسباب الجالبة للسرور، وذلك بنسيان ما مضىٰ عليه من المكاره التي لا يمكنه ردها، ومعرفته أن اشتغال فكره فيه من باب العبث والمحال، فيُجاهد قلبه عن التفكر فيها، وكذلك يجاهد قلبه عن قلقه لما يستقبله مما يتوهمه من فقر أو خوف أو غيرهما من المكاره التي يتخيلها في مستقبل حياته، فيعلم أن الأمور المستقبلة مجهولٌ ما يقع فيها من خير وشر، وآمال وآلام، وأنها بيد العزيز الحكيم، ليس بيد العباد منها شيء إلا السعي في تحصيل خيراتها، ودفع مضراتها، ويعلم العبد أنه إذا صرف فكره عن قلقه من أجل مستقبل أمره، واتكل علىٰ ربه في إصلاحه، واطمأن إليه في ذلك، إذا فعل ذلك اطمأن قلبه وصلحت أحواله وزال عنه همه وقلقه.

ومن أنفع ما يكون في ملاحظة مستقبل الأمور استعمال هذا الدعاء الذي كان النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعو به «**اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي إليها معادي، واجعل الحياة زيادةً لي في كل خير، والموت راحةً لي من كلِّ شر**»(١).

(١) رواه مسلم (٢٧٢٠).

وكذلك قوله: «**اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلىٰ نفسي طرفة عين وأصلح لي شأني كلَّه، لا إله إلا أنت**»(١).

فإذا لهج العبد بهذا الدعاء الذي فيه صلاح مستقبله الديني والدنيوي بقلب حاضر، ونيةٍ صادقة، مع اجتهاده فيما يُحقق ذلك، حقق الله له ما دعاه ورجاه وعمل له، وانقلب همه فرحًا وسروراً.

٧- إذا حصل لإنسان قلق وهموم بسبب النكبات، فإن من أنفع الأسباب لزوالها أن يسعىٰ في تخفيفها عن نفسه بأن يُقدر أسوأ الاحتمالات التي ينتهي إليها الأمر، ويوطن علىٰ ذلك نفسه، فإذا فعل ذلك فليَسْعَ إلىٰ تخفيف ما يمكن تخفيفه بحسب الإمكان، فبهذا التوطين وهذا السعي النافع، تزول همومه وغمومه، ويكون بدل ذلك السعي في جلب المنافع، وفي رفع المضار الميسورة للعبد، فإذا حلت به أسباب الخوف، وأسباب الأسقام، وأسباب الفقر فليتلق ذلك بطمأنينة وتوطين للنفس عليها، بل علىٰ أشد ما يمكن منها، فإن توطين النفس علىٰ احتمال المكاره يهونها ويزيل شدتها، وخصوصاً إذا أشغل نفسه بمدافعتها بحسب مقدوره، فيجتمع في حقه توطين النفس مع السعي النافع الذي يشغل عن الاهتمام بالمصائب، ويُجاهد نفسه علىٰ تجديد قوته المقاومة للمكاره، مع اعتماده في ذلك علىٰ الله، وحسن الثقة به، ولا ريب أن لهذه الأمور فائدتها العظمىٰ في حصول

(١) رواه أبو داود (٥٠٩٠) والنسائي في الكبرىٰ (١٠٤١٢) وأحمد (٢٠٤٣٠) وحسنه الألباني في صحيح الكلم الطيب (١٢١).

السرور وانشراح الصدور مع ما يؤمله العبد من الثواب العاجل والآجل، وهذا مُشاهد مُجرب، ووقائعه ممن جربه كثيرة جداً.

٨- قوة القلب وعدم انزعاجه وانفعاله للأوهام والخيالات التي تجلبها الأفكار السيئة؛ لأن الإنسان متىٰ استسلم للخيالات، وانفعل قلبه للمؤثرات، من الخوف من الأمراض وغيرها، ومن الغضب والتشوش من الأسباب المؤلمة، ومن توقع حدوث المكاره وزوال المحاب، أوقعه ذلك في الهموم والغموم والأمراض القلبية والبدنية، والانهيار العصبي الذي له آثاره السيئة، التي قد شاهد الناس مضارها الكثيرة، ومتىٰ اعتمد القلب علىٰ الله وتوكل عليه، ولم يستسلم للأوهام، ولا ملكته الخيالات السيئة، ووثق بالله، وطمع في فضله، اندفعت عنه بذلك الهموم والغموم، وزالت عنه كثير من الأسقام البدنية والقلبية، وحصل للقلب من القوة والانشراح والسرور ما لا يمكن التعبير عنه، فكم ملئت المستشفيات من مرضىٰ الأوهام والخيالات الفاسدة، وكم أثرت هذه الأمور علىٰ قلوب كثير من الأقوياء، فضلاً عن الضعفاء، وكم أدت إلىٰ الحمق والجنون.

واعلم أن حياتك تبع لأفكارك، فإن كانت أفكارك فيما يعود عليك نفعه في دين أو دنيا فحياتك طيبة سعيدة. وإلا فالأمر بالعكس.

والمُعافىٰ من عافاه الله ووفقه لجهاد نفسه لتحصيل الأسباب النافعة المقوية للقلب، الدافعة لقلقه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [سورة الطلاق:٣] أي كافيه جميع ما يُهمه من أمر دينه ودنياه، فالمتوكل علىٰ الله قوي القلب لا تؤثر فيه الأوهام، ولا تُزعجه الحوادث، لعلمه أن ذلك من ضعف النفس، ومن الخور

والخوف الذي لا حقيقة له، ويعلم مع ذلك أن الله قد تكفل لمن توكل عليه بالكفاية التامة، فيثق بالله ويطمئن لوعده، فيزول همه وقلقه، ويتبدل عُسره يُسرا، وترحه فرحا، وخوفه أمنا، فنسأله تعالىٰ العافية، وأن يتفضل علينا بقوة القلب وثباته، وبالتوكل الكامل الذي تكفل الله لأهله بكل خير، ودفع كل مكروه وضير.

وينبغي أيضـاً إذا أصابه مكروه أو خاف منه أن يقارن بين بقية النعم الحاصلة له دينية أو دنيوية، وبين ما أصابه من مكروه فعند المقارنة يتضح كثرة ما هو فيه من النعم، واضمحلال ما أصابه من المكاره[1].

۞ وقد لخص ابن القيم خمسة عشر نوعاً من الدواء يذهب الله بها الهم والحزن وهي:

الأول: توحيد الربوبية.

الثاني: توحيد الإلهية.

الثالث: التوحيد العلمي الاعتقادي (وهو توحيد الأسماء والصفات).

الرابع: تنـزيه الرب تعالىٰ عن أن يظلم عبده، أو يأخذه بلا سبب من العبد يوجب ذلك.

الخامس: اعتراف العبد بأنه هو الظالم.

السادس: التوسل إلىٰ الرب تعالىٰ بأحب الأشياء، وهو أسماؤه وصفاته، ومن أجمعها لمعاني الأسماء والصفات: الحي القيوم.

السابع: الاستعانة به وحده.

---

(١) انظر كتاب الوسائل المفيدة للحياة السعيدة للشيخ عبد الرحمن بن سعدي (ص: ٢٦).

الثامن: إقرار العبد له بالرجاء.

التاسع: تحقيق التوكل عليه، والتفويض إليه، والاعتراف له بأن ناصيته في يده، يصرفه كيف يشاء، وأنه ماض فيه حكمه، عدل فيه قضاؤه.

العاشر: أن يرتع قلبه في رياض القرآن، ويتعزىٰ به عن كل مصيبة، ويستشفي به من أدواء صدره، فيكون جلاء حزنه، وشفاء همه وغمه.

الحادي عشر: الاستغفار.

الثاني عشر: التوبة.

الثالث عشر: الجهاد.

الرابع عشر: الصلاة.

الخامس عشر: البراءة من الحول والقوة وتفويضهما إلىٰ من هما بيده [1].

نسأل الله تعالىٰ أن يعافينا من الهموم وأن يفرج عنا الكروب ويزيل عنا الغموم إنه هو السميع المجيب، وهو الحي القيوم.

(١) انظر زاد المعاد في هدي خير العباد (٤/ ١٨٥)و الطب النبوي لابن القيم (ص: ١٤٩).

تعليم العقيدة وتعلمها من أسباب التوفيق

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كنت رديف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال لي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يا غلام أو يا بني ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن**» قلت بلىٰ فقال: «**احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده أمامك تعرف إلىٰ الله في الرخاء يعرفك في الشدة إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله فقد جف القلم بما هو كائن فلو أن الخلق كلهم جميعًا أرادوا أن ينفعوك بشيء لم يقضه الله لك لم يقدروا عليه وإن أرادوا أن يضروك بشيء لم يقضه الله لك لم يقدروا عليه واعمل لله بالشكر واليقين واعلم أن في الصبر علىٰ ما تكره خيراً كثيراً وأن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسراً**»(١).

وهذا كلُّه مِن التَّربيةِ النَّبويَّةِ للأُمَّةِ؛ أنْ تَتعامَلَ بصِدْقٍ مع اللهِ، وأنْ تُراقِبَه في كلِّ أعمالِها، وألَّا تخافَ غيرَه سُبحانه؛ فمِنْه النَّفعُ والضُّرُّ، وأنْ تُربِّيَ أطفالَها علىٰ هذه المفاهيمِ الطَّيِّبةِ، فيَنْشَؤُوا ويَشِبُّوا عليها.

(١) رواه الترمذي (٢٥١٦) وأحمد (٢٨٠٣) وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٥٣٠٢) وصحيح الجامع (٧٩٥٧ - ٣٠٥١).

إن مسَّنا الضرُّ أو ضاقت بنا الحِيَلُ ... فلنْ يخيبَ لنا في ربِّنا أملُ

وإن أناخت بنا البلوىٰ فإن لنا ... ربًّا يُحَوِّلُها عنّا فتنتقلُ

اللهُ في كلِّ خَطبٍ حسبنا وكفىٰ ... إليه نرفعُ شكوانا ونبتهلُ

من ذا نلوذُ به في كشف كربتنا؟ ... ومن عليه سوىٰ الرحمن نتكلُ.

يا مالك الملك فادفع ما ألم بنا ... فما لنا بتولي دفعه قبلُ

وإن أصابكَ عُسْرٌ فانتظرْ فرجًا ... فالعسرُ باليسرِ مقرونٌ ومتصلٌ

كم أنقذَ اللهُ مضطراً برحمتهِ ... وكم أنالَ ذوي الآمالَ ما أملوا[1]

(١) الأبيات لمحمد بن علي بن عمر الضمديّ التهاميّ. ولد سنة ٨٨٣ بهجرة ضمد من المخلاف السليمانيّ بتهامة. ونشأ نشأة صالحة حيث حفظ القرآن، وارتحل لطلب العلم إلىٰ أماكن متعددة باليمن وإلىٰ مكة ثم استقر بضمد، وانصرف الىٰ التدريس والفتيا، وكان من الذين تبحروا في فنون عديدة، وكان كريم الخلق، وله نظم فائق وخط حسن. توفي سنة ٩٩٠ بعد أن عمر طويلاً رَحِمَهُ ٱللَّهُ. انظر تسبيح ومناجاة وثناء علىٰ ملك الأرض والسماء (ص: ١٦٦) لمُحَمَّد بن حَسَن بْن عَقيل مُوسَىٰ الشَّرِيْف.و الملحق التابع للبدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (٢/ ٢٠٤).

معالم على طريق التوفيق: الصلاة نور

ومن معالم التوفيق الكبرىٰ ما أن تسمع (حي علىٰ الصلاة) (حي علىٰ الفلاح) إلا وتُسارع إلىٰ الوضوء، فهذا علامة الإيمان والتوفيق.

نعم، قم إلىٰ الصلاة متىٰ سمعت النداء، وبكّر إليها ما استطعت، فهذا عنوان صدق المحبة، وأمارة التوفيق والفلاح.

إن الاستعداد للصلاة والانطلاق إلىٰ المسجد والحرص كل الحرص علىٰ الصف الأول الذي زهد فيه كثير من الناس في هذا الزمن، ولو علموا قدر الأجر والثواب العظيم لمشوا إلىٰ المسجد ولو حبواً علىٰ الرُكب!

عن أُبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رجل لا أعلم رجلًا أبعد من المسجد منه، لا تخطئه صلاة، قال: فقيل له أو قلت له: لو اشتريت حمارًا تركبه في الظلماء وفي الرمضاء، قال: ما يسرني أن منزلي إلىٰ جنب المسجد، إني أريد أن يكتب لي ممشاي إلىٰ المسجد ورجوعي إذا رجعت إلىٰ أهلي، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قد جمع الله لك ذلك كله**»(١) وفي لفظ: «**إن لك ما احتسبت**»(٢) صحيح مسلم.

(١) رواه مسلم (٦٦٣).

(٢) رواه مسلم (٦٦٣).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فيه إثبات الثواب في الخُطا في الرجوع كما يثبت في الذهاب)(١). ا.هـ.

ألم يقل ربنا في محكم التنزيل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [سورة يس:١٢].

بل، بلغ ببعض ممن وفقهم الباري أن يتقدم للصلاة ولو لبضع دقائق قبل الآذان مسارعة ومسابقة للفضل والأجر، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا.

ألم يقل ربنا في كتابه العزيز: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾ [سورة الحديد:٢١] عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**ألا أدلكم علىٰ ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات**» قالوا: بلىٰ يا رسول الله، قال: «**إسباغ الوضوء علىٰ المكاره، وكثرة الخطىٰ إلىٰ المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط**»(٢).

﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾ [سورة الإسراء:٧٨] فالصلاة نور هكذا قال نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، نور لك أيها الموفق في وجهك، نور لك في قلبك، نور لك في حياتك كلها، نور لك يوم القيامة، ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ﴾ [سورة النور:٣٥].

---

(١) شرح النووي علىٰ مسلم (٥/ ١٦٨).

(٢) رواه مسلم (٢٥١).

عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «**أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة، فإن صلحت صلح سائر عمله، وإن فسدت فسد سائر عمله**»(١).

إنها مفتاح التوفيق لخير الدنيا والآخرة.

إنها النور، إنها الهدىٰ، إنها بوابة التوفيق.

الصلاة موطن تضرع وخشوع وإخبات وبكاء ودعاء.

فأين أنتم يا أصحاب الحاجات؟!

فها هي الأبواب قد فتحت لنا، فهل من مشمر؟ يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في زاد المعاد: (الصلاة صلة بالله عَزَّوَجَلَّ، وعلىٰ قدر صلة العبد بربه عَزَّوَجَلَّ تفتح عليه من الخيرات أبوابها، وتقطع من الشرور أساسها، وتفيض عليه مواد التوفيق من ربه عَزَّوَجَلَّ، والعافية والصحة والغنيمة والغنىٰ والراحة والنعيم والأفراح والمسرات كلها محضرة إليه ومسارعة إليه)(٢) ا.هـ.

وعن سعيد بن المسيب قال: (ما أذن المؤذن منذ ثلاثين سنة إلا وأنا في المسجد)(٣).

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط (١٨٥٩) ورواه الترمذي بلفظ إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر، (سنن الترمذي ٤١٣). وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١٣٥٨).

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد (٤/ ٣٠٥).

(٣) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٢٦) النفح الشذي شرح جامع الترمذي (٤/ ١٧٣) البدر المنير (٤/ ٤٠٢).

فكيف هو حالنا اليوم مع صلاتنا؟! بل يقول ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وعماد الدِّين الذي لا يقوم إلا به هو: الصلوات المكتوبات، فينبغي الاعتناء بها ما لا تعنىٰ بغيرها)(١) ا.هـ.

ولنقف قليلًا معا في كلام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث قال: (إنما يقبل الله من صلاتك بقدر خشوعك وخضوعك، فاعبده في صلاتك كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، فإن لم يحضر قلبك ولم تسكن جوارحك، فهذا لقصور معرفتك بجلال الله تعالىٰ، فعالج قلبك عساه أن يحضر معك في صلاتك، فإنه ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها)(٢) ا.هـ.

(إن الرجل لينصرف وما كتب له إلا عُشر صلاته، تسعها، ثمنها، سبعها، سدسها، خمسها، ربعها، ثلثها، نصفها)(٣).

۞ إضاءة على الطريق:

لمكانة الصلاة وعظمتها؛ كانت الأمر الأول الذي يُحاسب عليه العبد يوم القيامة.

علىٰ من يريد النجاح في الدنيا، والآخرة أن يهتم بأمر الصلاة، فإن الصلاة في وقتها أهم ما يتقرب به العبد إلىٰ الله بعد الإيمان بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فقد فرض الله

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٣/ ٤٢٧).

(٢) بداية الهداية (ص: ٤٥).

(٣) رواه أبو داود (٧٩٦) وأحمد (١٨٨٩٤) والنسائي (٦١٥) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٦٢٦).

تعالىٰ علىٰ المسلم أداء الصلاة في أوقات محددة، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ١٠٣﴾ [سورة النساء:١٠٣].

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سألت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أي العمل أحب إلىٰ الله؟ قال: «**الصلاة في وقتها**». قلت ثم أي؟ قال: «**بر الوالدين**»، قلت ثم أي؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله**»(١). متفق عليه.

وعلىٰ من يريد النجاح في الدنيا، والآخرة أن يهتم بأمر الصلاة، ويسعىٰ في المحافظة عليها في وقتها، ويقدمها علىٰ أي أمر يعارضها من أمور الدنيا، التوفيق .. رزق الأبرار.

والعبد المؤمن في حله وترحاله لا يستغني إطلاقا عن معية الله تعالىٰ وهدايته ومدده، وهذا عين الفلاح.

وحقيقة التوفيق إمداد الله تعالىٰ العبد بعونه وإعانته وتسديده وتيسير أموره وتسخير الأسباب المعينة عليها، والتوفيق بيده سبحانه هو لا بيد من سواه.

وأعظم التوفيق: التوفيق إلىٰ الحق وقبوله، وإلىٰ الخير والعمل به، وتلك نعمة لا يملكها إلا رب العباد، ومقلب القلوب والأبصار، والذي يحول بين المرء وقلبه .. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ٨٨﴾ [سورة هود:٨٨].

فالله تعالىٰ يوفق من يشاء، ويخذل من يشاء..

(١) رواه البخاري (٥٩٧٠) ومسلم (٨٥).

۞ إضاءة آية التوفيق قال سبحانه :

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقٗا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ٨٨﴾ [سورة هود: ٨٨].

﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ - أي: وما يحصل لي من التوفيق لفعل الخير، والانفكاك عن الشر إلا بالله تعالىٰ، لا بحولي ولا بقوتي. ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾- أي: اعتمدت في أموري، ووثقت في كفايته، ﴿وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ٨٨﴾ في أداء ما أمرني به من أنواع العبادات، وفي [هذا] التقرب إليه بسائر أفعال الخيرات. وبهذين الأمرين تستقيم أحوال العبد، وهما الاستعانة بربه، والإنابة إليه، كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [سورة هود: ١٢٣] وقال: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥﴾ [سورة الفاتحة: ٥][(١)].

۞ وما توفيقي الا بالله عليه توكلت والية أنيب :

مهما كان ذكاؤك، واجتهادك، وسعة حيلتك، وتعدد مهاراتك، وكثرة معارفك، فلن يكفي ذلك - والله - لتنال مطلوبك، أو لتحقق مقصودك ، دنيويا كان أو أخرويا، ويبقىٰ التعويل في المبدأ والختام علىٰ فضل الله ورحمته، وتوفيقه لعبده في كل ما يأتي أو يذر.

(١) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٣٨٧).

ولا يعني ذلك بحال طرحا للأسباب ولا إهمالا لها، وإنما المقصود: تنبيه القلب إلىٰ عدم الركون إلىٰ الأسباب، والحذر من الثقة التامة بها، ووجوب تفويض الأمر إلىٰ من بيده ملكوت كل شيء، والذي إن فتح لأحد من عباده باب خير ورحمة وعافية فلا ممسك له، وإن أمسك فلا مرسل له من بعده.

وكم رأىٰ المرء في واقعه، وفي واقع الناس من حوله نماذج لا حصر لها تشهد لهذا الأمر، وتدل عليه.

(وقد أجمع العارفون علىٰ أن كل خير فأصله بتوفيق الله للعبد، وكل شر فأصله خذلانه للعبد. وأجمعوا أن التوفيق أن لا يكِلك الله إلىٰ نفسك، وأن الخذلان هو أن يخلي بينك وبين نفسك. فإذا كان كل خير فأصله التوفيق، وهو بيد الله لا بيد العبد؛ فمفتاحه الدعاء والافتقار وصدق اللُجأ والرغبة والرهبة إليه؛ فمتىٰ أُعطىٰ العبد هذا المفتاح فقد أراد أن يفتح له، ومتىٰ أضله عن المفتاح بقي باب الخير مرتّجا دونه)[1].

(١) الفوائد لابن القيم (ص: ٩٧).

التوفيق هبة من الله

التوفيق هبة من الله لا تُنال إلا بصدق العزم وحسن العمل. قال شقيق بن إبراهيم: أغلق باب التوفيق عن الخلق من ستة أشياء:

١- اشتغالهم بالنّعمة عن شكرها. تذكر نعمًا كثيرة أنعم الله بها عليك، كم من نعمة لم تؤدِّ شكرها حقًّا.

٢- رغبتهم في العلم وتركهم العمل. تذكر أمورًا كثيرة تعلمها ولكنك لم تعمل بها بعد. لا تشغل قلبك وتذهب وقتك بالجدل وأهله.

٣- المسارعة إلىٰ الذّنب وتأخير التّوبة تأمل بطء خطواتك في السير إلىٰ الله، وكم تأخرت عن التوبة؟

٤- الاغترار بصحبة الصّالحين وترك الاقتداء بأفعالهم لا تغتر بصحبة الطيبين دون أن تلتزم بأخلاقهم وأفعالهم.

٥- إدبار الدّنيا عنهم وهم يبتغونها تذكر أنَّ الدنيا تغر وتضر ثم تمر، فلا تلهث وراءها.

٦- إقبال الآخرة عليهم وهم معرضون عنها ﴿وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ [سورة الأعلى:١٧] فلا تعرض عن الآخرة(١).

(١) الفوائد لابن القيم (ص: ١٧٧).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ معلقا: (وأصل ذلك عدم الرغبة والرهبة، وأصله ضعف اليقين، وأصله ضعف البصيرة، وأصله مهانة النفس ودناءتها واستبدال الذي هو أدنىٰ بالذي هو خير، وإلا فلو كانت النفس شريفة كبيرة لم ترض بالدون)(١).

إذا كانت نفسك شريفة وعزيزة، فلن تقبل بالدون ولن ترضىٰ إلا بأفضل العواقب.

تأمل قول الله تعالىٰ: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [سورة الشمس:٩-١٠] فمن زكىٰ نفسه بالطاعة فاز، ومن أفسدها بالمعاصي خاب. شعارك من اليوم: لن أرضىٰ بالدنية كن علىٰ قدر ما اصطفاك الله به، كن عبد الله حقًا. ارضِ الله وتودد إليه، وارفع رأسك، واعمل جاهدًا علىٰ تحصيل الطاعة والابتعاد عن المنكرات. فالله قد شرفك، فكن كريمًا في سلوكك. وأمامك طريق واحد: صراط مستقيم.

ولتحقيق التوفيق: الإكثار من الحمد، وقل: "اللهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك".

التضرع لله: اطلب من الله توبة نصوحًا تفتح لك أبواب رحمته.

العمل بما هجرته: قم اليوم بشيء من الأعمال التي تركتها منذ زمن، كالنافلة أو عمل البر. واعلم أن الراحة الحقيقية تبدأ عند أول قدم في الجنة، والسفر إليها محفوف بالمشاق، لكن النعيم يستحق التعب.

(١) الفوائد لابن القيم (ص: ١٧٧).

الفرق بين الرزق والتوفيق

فالرزق هو ما يرزقه الله تعالىٰ للعبد من مال وغيره، وهو مكتوب ومقدر لا يزيد ولا ينقص في علم الله تعالىٰ؛ كما هو الشأن في المقادير كلها.

والتوفيق قد عرفه أهل العلم (بأن لا يكلك الله إلىٰ نفسك)، ومن التوفيق أن ييسر الله للمرء ما يبتغيه مما ينفعه، وأكبر سبب لعدم التوفيق هو ارتكاب الذنوب والمعاصي، نسأل الله العافية.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠﴾ [سورة الشورى:٣٠]، وقال سبحانه: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٤١﴾ [سورة الروم:٤١] وقال عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه**»(١).

ومع إيماننا بأن الله بيده كل شيء، وأنه قدر كل شيء، فنحن مأمورون من قبل الله بالأخذ بالأسباب، ونؤمن بأن هذه الأسباب لا تعطي النتائج إلا بإذن الله. ويجمع ذلك عبارة ابن تيمية حيث يقول: فالالتفات إلىٰ الأسباب واعتبارها مؤثرة

(١) رواه أحمد (٢٢٣٨٦) وابن ماجه (٤٠٢٢) وابن حبان (٨٧٢) وحسنه الألباني وقال حسن دون قوله وإن الرجل انظر سنن ابن ماجه (٢/ ١٣٣٤) بتعليق محمد فؤاد عبد الباقي.

في المسببات شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسبابا نقص في العقل، والإعراض عن الأسباب المأمور بها قدح في الشرع[١]. اهـ.

ثم اعلم أنه لا وجود لما قلت إنه يعرف بالعارض الذي يقف في طريق المرء، واعتقاد مثل هذا من التشاؤم المنهي عنه. فقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الطيرة شرك**»[٢]، والطيرة هي: التشاؤم مما لا يتشاءم منه، وهي من أعمال الجاهلية.

۞ تصحيح مفهوم:

أعظم سبب للتوفيق والرزق ليس ذكائك ولا شهادتك ولا علاقاتك أيًا كانت .. بل نيَّتك الطيبة الخالصة لوجه الله هي التي تفتح لك أبواب الرزق والتوفيق من حيث لا تحتسب .. النوايا الطيبة تُرتِّب لصاحبها أجمل الأقدار .. فسعادة الآخرين لن تأخذ من سعادتك، وغناهم لن ينقص من رزقك.

شرح حديث: (ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين):

ورد هذا الدعاء في حديث صحيح عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لفاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**ما يمنعك أن تسمعي ما أوصيك به، أن تقولي إذا أصبحت وإذا أمسيت: يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلىٰ نفسي طرفة عين**»[٣].

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١/ ١٣١).

(٢) رواه أبو داود (٣٩١٠) وابن ماجه (٣٥٣٨) وأحمد (٣٦٨٧) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٩٦٠).

(٣) رواه النسائي في الكبرىٰ (١٠٣٣٠) والبيهقي في شعب الإيمان (٧٤٦) والحاكم في المستدرك (٢٠٠٠) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٥٨٢٠ - ١٩١٣).

ولفظه في بعض الروايات: «**أن تقولي إذا أصبحت وإذا أمسيت**».

وقد ورد هذا الدعاء، بلفظ مقارب للمذكور هنا، من حديث أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**دَعَوَاتُ الْمَكْرُوبِ اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو فَلَا تَكِلْنِي إِلَىٰ نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**»(١).

شرح دعاء: (يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث):

هذا الدعاء من أعظم الأدعية التي تتضمن تحقيق العبودية لله رب العالمين، وتتضمن التوسل إلىٰ الله تعالىٰ بأسمائه وصفاته، فهو سبحانه الحي القيوم، الرحمن الرحيم، والعبد يستمد العون والتأييد من قيوميته عَزَّوَجَلَّ، كما يستغيث برحمته التي وسعت كل شيء، لعله ينال منها ما يسعده في دنياه وآخرته.

ثم يسأل الله تعالىٰ صلاح الأمور والأحوال، فيقول: أصلح لي شأني كله أي: جميع أمري: في بيتي، وأهلي، وجيراني، وأصحابي، وعملي، ودراستي، وفي نفسي، وقلبي، وصحتي ... في كل شيء يتعلق بي، اجعل يا رب الصلاح والعافية حظي ونصيبي.

وذلك كله من فضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وليس باستحقاق العبد ولا بجاهه، ولذلك جاء ختم الدعاء بالاعتراف بالفقر التام إليه سبحانه، والاستسلام الكامل لغناه عَزَّوَجَلَّ، فيقول: ولا تكلني إلىٰ نفسي طرفة عين: أي لا تتركني لضعفي وعجزي لحظة واحدة، بل أصحبني العافية دائما، وأعني بقوتك وقدرتك، فإن

(١) تقدم تخريجه صفحه ٣٦.

من توكل علىٰ الله كفاه، ومن استعان بالله أعانه، والعبد لا غنىٰ به عن الله طرفة عين.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (مِن ههنا خذل مَن خُذل، ووُفِّقَ مَن وُفق، فحجب المخذول عن حقيقته، ونسي نفسه، فنسي فقره وحاجته وضرورته إلىٰ ربه، فطغىٰ وعتا، فحقت عليه الشقوة، قَالَ تَعَالَىٰ: كلا إن الإنسان ليطغىٰ أن رءاه استغنىٰ وقال: فأما من أعطىٰ واتقىٰ وصدق بالحسنىٰ فسنيسره لليسرىٰ وأما من بخل واستغنىٰ وكذب بالحسنىٰ فسنيسره للعسرىٰ ، فأكمل الخلق أكملهم عبودية، وأعظمهم شهودا لفقره وضرورته وحاجته إلىٰ ربه، وعدم استغنائه عنه طرفة عين.

ولهذا كان من دعائه: أصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلىٰ نفسي طرفة عين ولا إلىٰ أحد من خلقك، وكان يدعو: يا مقلب القلوب ثبت قلبي علىٰ دينك، يعلم أن قلبه بيد الرحمن عَزَّوَجَلَّ، لا يملك منه شيئا، وأن الله سبحانه يصرفه كما يشاء، كيف وهو يتلو قوله تعالىٰ: ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا، فضرورته إلىٰ ربه وفاقته إليه بحسب معرفته به، وحسب قربه منه، ومنزلته عنده) ا.هـ(١).

وقال المناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، في شرح الرواية الثانية، دعاء المكروب: (ومن شهد لله بالتوحيد والجلال مع جمع الهمة وحضور البال فهو حري بزوال الكرب في الدنيا والرحمة ورفع الدرجات في العقبىٰ)(٢).

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص: ١٠).

(٢) "فيض القدير" (٣/ ٥٢٦).

وأما معنىٰ لا تكلني إلىٰ نفسي طرفة عين، فقد قال المناوي في فيض القدير: (لا تكلني أي لا تصرف أمري إلىٰ نفسي أي لا تسلمني إليها وتتركني هملا "طرفة عين" أي تحريك جفن وهو مبالغة في القلة)(١).

ومن خلال ما سبق يتضح أن لا تعارض بين كون الله تعالىٰ حي قيوم وبين أن يكل الإنسان إلىٰ نفسه أي أن يترك إعانته، ويكون معنىٰ لا تكلني إلىٰ نفسي، أي لا تترك إعانتي ففيه طلب الإعانة من الله تعالىٰ في كل لحظة، والمؤمن مأمور بطلب الإعانة من الله في كل حين كما في قوله تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [سورة الفاتحة:٥] وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمعاذ: إني لأحبك، لا تدعن في دبر كل صلاة تقول: اللهم أعني علىٰ ذكرك وشكرك وحسن عبادتك(٢).

۞ ما معنى طرفة عين؟

«**يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ أصلح لي شأني كُلَّهُ وَلَا تَكِلْنِي إِلَىٰ نفسي طَرْفَةَ عَيْنٍ**»(٣). إن طرفة العين هي عندما ينظر الإنسان يغمض عينه لحظة، هذه اللحظة كأن الإنسان يدعي ربه لا تكلني إلىٰ نفسي أي لا تصرف أمري إلىٰ نفسي أي لا تسلمني إليها وتتركني هملاً.

---

(١) فيض القدير (٢/ ١١٦).

(٢) رواه أبو داود (١٥٢٢) والنسائي (١٣٠٣) وأحمد (٢٢١١٩) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٩٦٩ - ٣٠٦٣).

(٣) تقدم تخريجه صفحة ١٠٠.

«**طرفة عين**»: أي تحريك جفن وهو مبالغة في القلة فلا تجعلني أتوكل علىٰ أحد إنما أتوكل عليك في أموري كلها لافتًا أنه يجب علىٰ الإنسان أن يجعل الله دائما وابدًا معه ويستعين بالله كما قال سُبحانه ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [**سورة الفاتحة: ٥**].

التوكل على الله

التوكل علىٰ الله والإنابة إليه: قال الله تعالىٰ عن شعيب عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [سورة هود:٨٨]، فالتوفيق منزلة عظيمة يهبها الله لمن أحب من عباده، فإذا علم الله من عبده الصدق والإنابة إليه وفّقه الله وهداه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾﴾ [سورة الرعد:٢٧]، وإذا وفق الله العبد اجتباه ويسّر له أبواب الخير يضرب بسهم في كل باب تواقًا منهومًا مستسهلاً للصعاب طارحًا للعقبات.

۞ إرادة الآخرة:

الموفق هو من صرف الله قلبه عن التعلق بالدنيا والطمع في جمعها والظفر بزينتها وشهواتها، وأنزل الله بقلبه همّ الآخرة، يعد أيامه وأنفاسه يريد ألا ينفقها إلا فيما يرضي الله والهاتف دائمًا في قلبه: الرحيل .. الرحيل، وهذا بخلاف المغبون الذي صرفته دنياه عن آخرته.

يقول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من كانت الآخرة همّه جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه، وفرّق عليه شمله، ولم يأتِه من الدنيا إلا ما قُدِّر له**»(١).

(١) رواه الترمذي (٢٤٦٥) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٥١٠ - ٢٢٢٢).

۞ التوبة من المعاصي:

من علامات التوفيق أن يوفق العبد للتوبة من الوقوع في المعاصي حتىٰ لو تكرّرت منه، أو يحال بينه وبين المعاصي فلا يستطيع أن يصل إليها، قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمًا ٢٧﴾ [سورة النساء:٢٧]، والله عَزَّوَجَلَّ يفرح بتوبة عبده، والعاصي لا يوفق، يجد النحس دائمًا في وجهه باستمرار، التوفيق مجانب له؛ في كل طريق لا يجد معه توفيقًا من الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن التوفيق هو قرين العمل الصالح والهداية والطاعة، أما المعاصي والذنوب فإن صاحبها غير موفق لا في الدنيا ولا في الآخرة.

۞ نفع الناس وقضاء حوائجهم:

ومن علامات التوفيق أن يوفّق العبد لنفع الناس وقضاء حوائجهم كما صحّ عنه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أنه قال: «**أحب الناس إلىٰ الله أنفعهم**»(١).

الموفق هو ذلكم المحسن للآخرين العطوف عليهم الذي يقلقه شجون المصابين وأنات المساكين والمشردين والمحرومين والمظلومين، فهو يسعىٰ بكل سبيل ليكفكف عبراتهم، ويضمد جراحهم، ويمسح علىٰ رؤوسهم ليرد إليهم اعتبارهم وينفي كربهم ويدخل السرور عليهم يوم نسيهم الكثير وانشغلوا بأنفسهم وشهواتهم وكماليات حياتهم.

(١) تقدم تخريجه صفحة (٥٧).

من علامات التوفيق الاهتمام بالقرآن الكريم:

العناية بالقرآن تعلماً وتعليما: يقول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**»(١).

فهنيئًا لك يا من تدرس كتاب الله وتدرّسه ويا من تقرؤه كلّ يوم. وأنت يا من فرّطت في كتاب الله وتلاوته، تدارك نفسك فإن من علامة التوفيق أن توفّق لتلاوة كتاب الله حتىٰ تحوز علىٰ هذه الخيرية والأجر العظيم.

من علامات التوفيق القيام بشعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

ومنها أيضا أن يوفق العبد للقيام بشعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [سورة آل عمران:١١٠] وقال سبحانه: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [سورة آل عمران:١٠٤].

فعلّق سبحانه الفلاح والتوفيق علىٰ من أمر بالمعروف ونهىٰ عن المنكر، وجعل الخيرية في هذه الأمة لمن أمر ونهىٰ، جعلنا الله وإياكم منهم.

(١) رواه البخاري (٥٠٢٧).

معالم على طريق التوفيق: العلم نور

طلب العلم من توفيق الله: من التوفيق أن يوفّق العبد لطلب العلم الشرعي والتفقه في دين الله، ومن سلك طريقَ العلم فإنه علىٰ خيرٍ كثير، فقد جاء في الحديث الصحيح عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين**»(١).

ومن معالم توفيق الله لعبده طلبه للعلم والحرص عليه والدلالة عليه لماذا؟

لأن طلب العلم نور، وهو طريق الرضوان، وباب الخشية، وعلامة التوفيق، وسبيل الفلاح الموصل إلىٰ الجنة. ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [سورة طه: ١١٤].

وعن الأوزاعي رَحِمَهُ اللَّهُ قال: (الناس عندنا أهلُ العلم، ومن سواهم فلا شيء)(٢).

وما أجمل ما قاله الشاعر:

ما الفضلُ إلا لأهل العلم إنهم ... علىٰ الهدىٰ لمن استهدىٰ أدلَّاء

وقدرُ كل امرئ ما كان يحسنُه ... والجاهلون لأهل العلم أعداءُ

ففُز بعلم تعِش حيًّا به أبدًا ... الناسُ موتَىٰ وأهلُ العلم أحياءُ(٣)

---

(١) تقدم تخريجه صفحة (٥٣).

(٢) صفة الصفوة (٢/ ٤٠٤) والإعلام بحرمة أهل العلم والإسلام (ص: ١٧٣) لمحمد بن أحمد بن إسماعيل المقدم.

(٣) الأبيات في ديوان الإمام علي بن أبي طالب، وهي من أوائل الأبيات في أول قصيدة =

أخي الموفق:

وأنت سائرٌ في طريق طلب العلم، اسأل ربك التوفيق والبركة فيه، وتذكر قول ابن خُشرم رَحِمَهُ ٱللَّهُ حين قال: كثيرًا ما كان ابن تيمية يقول: (توفيق قليل خيرٌ من علم كثير)(١).

قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدِّين**»(٢).

دلّ ذلك علىٰ أن من علامة التوفيق الفقه في الدِّين، لماذا؟ لأنه بذلك يعبد الله علىٰ بصيرة ونور، ويدعو غيره علىٰ بصيرة وعلم وهدىٰ، فيا ليت قومي يعلمون! بل تأمل في هذا الفضل، وهذا الكرم، وهذا التوفيق لمن سلك وسار في طريق العلم والتعلم.

عن أبي الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من سلك طريقًا يلتمسُ فيه علمًا، سهَّل الله له طريقًا إلىٰ الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضًا لطالب العلم**»(٣).

= في الديوان فانظره. ومنها أيضا:

نقم بعلم ولا تطلب به بدلا فالناس موتىٰ وأهل العلم أحياء

أسرار البلاغة في علم البيان (ص: ١٩١) و انظر تاريخ بغداد ت بشار (٦/ ٥٩).

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان (١٧٣٨).

(٢) تقدم تخريجه صفحة (٥٣).

(٣) رواه الترمذي (٢٦٤٦) وابن ماجه (٢٢٣) وأحمد (٨٣١٦) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٢٩٨).

ها هي - أخي الموفق - إعلانات دروس العلماء في المساجد مُشرعة أبوابها، هلمَّ إليها، محاضرات الدعاة الفضلاء في كل مكان تناديك، الملتقيات والمخيمات والدورات، والبرامج والأشرطة بأنواعها، كلها كنوز بين يديك. فما الذي يمنعك؟ وما الذي يشغلك؟ فأين أنت؟ ورحم الله من قال: من المحبرة إلىٰ المقبرة(١).

وختامًا: يقول الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (الناس محتاجون إلىٰ العلم أكثر من حاجتهم إلىٰ الطعام والشراب؛ لأن الطعام والشراب يحتاج إليه في اليوم مرة أو مرتين، والعلم يحتاج إليه بعدد الأنفاس)(٢).

رَأَيتُ العِلمَ صاحِبُهُ كَريمٌ ... وَلَو وَلَدَتهُ آباءٌ لِئامُ
ولَيسَ يزالُ يَرفَعُهُ إِلىٰ أَن ... يُعَظِّمَ أَمرَهُ القَومُ الكِرامُ
وَيَتَّبِعونَهُ في كُلِّ حالٍ ... كَراعي الضَأنِ تَتبَعُهُ السَوامُ
فَلَولا العِلمُ ما سَعِدَت رِجالٌ ... وَلا عُرِفَ الحَلالُ وَلا الحَرامُ

قال مالك بن أنس: (حق علىٰ من طلب العلم أن يكون له وقارٌ وسكينةٌ وخشية؛ فإن من سعادة المرء أن يوفق للخير)(٣).

(١) انظر المشوق إلىٰ القراءة وطلب العلم (ص: ٢٧).

(٢) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١/ ٦١) الآداب الشرعية والمنح المرعية (٢/ ٤٢).

(٣) انظر مسند الموطأ للجوهري (ص: ٩٠) سير أعلام النبلاء في ترجمة الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧/ ١٨٥).

من توفيق الله للعبد لزوم الإستغفار

إن من كمال نعمة الله وسعة رحمته أن جعل لعباده طريقًا يرجعون به عن ذنوب اقترفوها، وآثام ارتكبوها، وما من عبد إلا وهو معرض لارتكاب الذنوب صغيرة كانت أو كبيرة، إما بتركه لما أمره الله به أو فعله لما نهاه عنه وذلك من سنن الله، له فيها حكمة بالغة ليميز الخبيث من الطيب، كما قال نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث: «**لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون ثم يستغفرون فيغفر لهم**»(١).

وكل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون(٢).

فالاستغفار سبيل وضعه الله لعباده للعود إليه بعد الذنب؛ ليعفو عن سيئاتهم، ويقيهم شر عقوبتها، ويوفقهم لفعل الحسنات، فيتبين إذن أن الاستغفار له نتائج حسنه وفوائد طيبة يمكن ذكر بعضها:

١- أن الاستغفار يجلب الرحمة، يدل علىٰ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [سورة النساء: ١١٠].

(١) رواه مسلم (٢٧٤٩).

(٢) رواه الترمذي (٢٤٩٩) وابن ماجه (٤٢٥١) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٥١٥).

قال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرحه لهذه الآية: (أي من تجرأ علىٰ المعاصي واقتحم علىٰ الإثم، ثم استغفر الله استغفارا تاما، يستلزم الإقرار بالذنب، والندم علية، والإقلاع، والعزم علىٰ ألا يعود، فهذا قد وعده من لا يخلف الميعاد بالمغفرة والرحمة، فيغفر له ما صدر منه من الذنب، ويزيل عنه ما ترتب عليه من النقص والعيب، ويعيد إليه ما تقدم من الأعمال الصالحة ويوفقه فيما يستقبله من عمره، ولا يجعل ذنبه حائلا عن توفيقه، لأنه قد غفره، وإذا غفره غفر ما يترتب عليه)(١).

وقوله تعالىٰ في خطاب شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لقومه: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾ [سورة هود: ٩٠].

قال العلامة محمد جمال الدين القاسمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير هذه الآية: (﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ أي من عبادة الأصنام ﴿ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ أي بالتوحيد، أو بالرجوع عن البخس والتطفيف ﴿إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ﴾ أي للمستغفرين التائبين ﴿وَدُودٌ﴾ أي مبالغ في المحبة لهم)(٢).

وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (﴿رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾ [سورة هود: ٩٠] لمن تاب وأناب، يرحمه فيغفر له، ويتقبل توبته ويحبه، ومعنىٰ الودود من أسمائه تعالىٰ، أنه يحب عباده المؤمنين ويحبونه، فهو "فعول" ومعنىٰ "مفعول")(٣).

---

(١) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٢٠٠).

(٢) تفسير القاسمي = محاسن التأويل (٦/ ١٢٦) لمحمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (المتوفى: ١٣٣٢هـ).

(٣) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٣٨٨).

وقال الشيخ أبو بكر الجزائري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (واستغفروا ربكم مما أنتم عليه من الشرك والمعاصي، ثم توبوا إليه بالطاعة ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ﴾ [سورة هود:٩٠] لا يعذب من تاب إليه، ودود يحب من أناب إليه)(١).

٢- أن الاستغفار سبب لفتح أبواب الخيرات والبركات علىٰ الناس، يفيد ذلك قوله جَلَّ وَعَلَا علىٰ لسان نبي الله هود علية السَّلام لقومه: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ ...﴾ [سورة هود:٥٢] وقوله جلَّ شأنه علىٰ لسان نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لقومه: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾ [سورة نوح:١٠-١٢].

قال الشيخ أبو بكر جابر الجزائري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ذكر هداية الآيات: (استنبط بعض الصالحين من هذه الآية أن من كانت له رغبه في مال أو ولد فليكثر من الاستغفار الليل والنهار ولا يمل، يعطه الله تعالىٰ مراده من المال والولد)(٢).

٣- أن الاستغفار سبب لتفريج الهم وتيسير الرزق وتسهيله، قال عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم: «**من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجا، ومن كل هم فرجا، ورزقه من حيث لا يحتسب**»(٣)، وقال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في

(١) أيسر التفاسير للجزائري (٢/ ٥٧٣).

(٢) المرجع السابق (٥/ ٤٤٢).

(٣) رواه أبو داود (١٥١٨) وابن ماجه (٣٨١٩) وضعفه الألباني في السليلة الضعيفة (٢/ ١٤٢) وقال وسنده ضعيف، الحكم بن مصعب مجهول كما قال الحافظ في "التقريب".

تفسيره لآية هود السابقة: (ومن اتصف بهذه الصفة "أي الاستغفار" يسر الله عليه رزقه وسهل عليه أمره وحفظ شأنه)(١).

٤- الاستغفار دليل علىٰ اعتراف العبد بتقصيره في حقوق مولاه ومن علامات رجوعه إليه قبل أخذه إياه بذنوبه، وقد تبين ذلك في سيد الاستغفار في قول العبد: «... **وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت**»(٢) وقوله: «**وأنا علىٰ عهدك ووعدك ما استطعت**...» قال الحافظ بن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قال الخطابي في قوله «**ما استطعت**»: واشتراط الاستطاعة في ذلك معناه: الاعتراف بالعجز والقصور عن كنه الواجب من حقه تعالىٰ)(٣)، وقال ابن بطال أيضًا: (وفي قوله ﴿مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ﴾ [سورة هود: ٨٨] إعلام لأمته أن أحدا لا يقدر علىٰ الإتيان بجميع ما يجب عليه، ولا الوفاء بكمال الطاعات والشكر علىٰ النعم، فرفق الله بعباده فلم يكلفهم من ذلك إلا وسعهم)(٤).

٥- الاستغفار نوع من أنواع الذكر، والذكر من أجل العبادات القولية حث الله عليه في مواضع شتىٰ في كتابه العزيز في مثل قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ٤١﴾ [سورة الأحزاب: ٤١].

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة (٤/ ٣٢٩).

(٢) رواه البخاري (٦٣٠٦).

(٣) فتح الباري لابن حجر (١١/ ٩٩).

(٤) المرجع السابق (١١/ ١٠٠).

٦- أن الاستغفار يعين العبد علىٰ أن تكون دعوته مستجابة، حيث جعل الاستغفار من آداب الدعاء التي ينبغي أن يقدمها الداعي قبل التوجه بطلبه إلىٰ ربه جَلَّ وَعَلَا.

قال ابن حجر في شرحه لأحاديث باب التوبة: (أشار المصنف - أي البخاري - بإيراد هذين البابين - وهما الاستغفار ثم التوبة - في أوائل كتاب الدعاء إلىٰ أن الإجابة تسرع إلىٰ من لم يكن متلبساً بالمعصية، فإذا قدم التوبة والاستغفار قبل الدعاء كان أمكن لإجابته، وما ألطف قول ابن الجوزي، إذ سئل أأسبح أو أستغفر فقال: الثوب الوسخ أحوج إلىٰ الصابون من البخور) (١).

٧- بسبب الاستغفار يقبل الرب علىٰ عبده ويفرح بفعله ويرضىٰ به، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لله أفرح بتوبة العبد من رجلٍ نزل منزلا وبه مهلكه، ومعه راحلته عليها طعامه وشرابه، فوضع رأسه فنام نومة فاستيقظ وقد ذهبت راحلته، فطلبها حتىٰ إذا اشتد عليه الحر والعطش قال: أرجع إلىٰ مكاني الذي كنت فيه فأنام حتىٰ أموت، ثم رفع رأسه، فإذا راحلته عنده عليها زاده: طعامه وشرابه، فالله أشد فرحا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده**»(٢).

٨- أن الاستغفار أمان من غضب الجبار وعقابه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [سورة الأنفال: ٣٣].

---

(١) فتح الباري لابن حجر (١١/ ١٠٢).

(٢) رواه البخاري (٦٣٠٨).

٩ - أنه سبب لدفع المصائب قبل نزولها ورفعها بعد نزولها، فقد تقرر بأن وقوع المصائب والبلايا بسبب الذنوب، وإذا استغفر العباد ربهم وتابوا إليه توبة نصوحًا من ذنوبهم فإن الرب جَلَّوَعَلَا يقبل التوبة ويرفع تلك المصائب النازلة بسبب الاستغفار، قَالَتَعَالَىٰ: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ [سورة النساء:١٤٧].

١٠ - بالاستغفار تحصل مغفرة الذنوب من رب العزة جَلَّوَعَلَا، والمغفرة وقاية شر الذنب حتىٰ لا يعاقب العبد بذنبه وليس مجرد الستر، قَالَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [سورة النساء:١١٠] وقَالَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ [سورة المائدة:٧٤].

١١- الاستغفار يورث العبد دخول الجنة، ففي حديث سيد الاستغفار: «**ومن قالها من النهار موقنًا بها فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة**»(١).

١٢ - أنه يجعل العبد ممن يذكرون عند الرب جَلَّوَعَلَا، فالاستغفار نوع من أنواع الذكر، وإذا داوم العبد عليه فإنه يدخل فيمن يشملهم الوعد الكريم من الرب الرحيم في قوله تعالىٰ: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [سورة البقرة:١٥٢] وقوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في الحديث القدسي: «**إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي...**»(٢).

(١) رواه البخاري (٦٣٠٦).

(٢) رواه البخاري (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥).

معالم على طريق التوفيق: وظيفة العمر

ومن معالم التوفيق الكبرىٰ أن يوفق العبد لتوبة وأوبة صادقة في حياته الدنيا، يسير علىٰ طاعة الله، يتتبع مرضاة ربه، يندم علىٰ ما فات ويستدرك ما بقي من العمر؛ إنها التوبة.

التوبة وظيفة العمر.

التوبة نور يتلألأ في سماء وحياة المؤمن.

التوبة من أجل الطاعات وأعظمها.

التوبة تصحيح للمسارات الخاطئة التي يسير فيها البعض.

التوبة حياة مشرقة مليئة بالأعمال الصالحة.

التوبة توفيق من الله يمن بها علىٰ ما يشاء من عباده.

إنها التوبة فرح الرب العظيم بعودتك وتوبتك؛ لأن ربنا هو التواب الرحيم، فأين التائبون الموفقون؟!

۞ تأمل هذا النداء الرباني الذي يفيض بالرحمة:

﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [سورة الزمر:٥٣].

بل ويزداد الغفور الرحيم كرمًا وثوابًا للتائبين الموفقين إذ يقول: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [سورة الفرقان:٧٠] قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الاستغفار من أكبر الحسنات وبابه واسع، فمن أحس بتقصير في قوله أو عمله أو حاله أو رزقه أو تقلب قلبه؛ فعليه بالتوحيد والاستغفار إذا كان بصدق وإخلاص(١).

ويقول الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أكثروا من الاستغفار في بيوتكم وعلىٰ موائدكم وفي طرقاتكم وفي أسواقكم وفي مجالسكم؛ فإنكم لا تدرون متىٰ تنزل المغفرة)(٢).

بل تأمل إلىٰ هذه الكلمة المؤثرة في القلوب الصادقة.

يقول الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (التوبة النصوح: أن تبغض الذنب كما أحببته، وأن تستغفر الله كلما ذكرته)(٣) ا.هـ.

الموفق من إذا أُعطي شكر، وإذا ابتلي صبر، وإذا أذنب استغفر، فهذه هي عناوين السعادة كما قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٤).

سُئل أحد أهل العلم: ماذا تنصحني لاستقبال مواسم الطاعات؟

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١١/ ٦٩٨).

(٢) جامع العلوم والحكم (٢/ ٤٠٨) لطائف المعارف لابن رجب (ص: ٢١٤).

(٣) انظر كتاب ففروا إلىٰ الله - القلموني (ص: ٢٢).

(٤) الوابل الصيب من الكلم الطيب (ص: ٥).

فقال: خير ما تستقبل به مواسم الطاعات كثرة الاستغفار؛ لأن ذنوب العبد تحرمه التوفيق.

فمن هذه اللحظة ابدأ صفحة التوبة والندم والإقبال علىٰ الله العزيز الغفار.

✧ **أيها الموفق**: تُب إلىٰ الله، عُد إلىٰ ربك، فما أجمل التوبة وما أعذبها إذا كانت بصدق وإخلاص وإخبات ومسارعة إلىٰ الخيرات ! فلنمسي تائبين ولنصبح تائبين، وفقني الله وإياكم للتوبة النصوح ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٨﴾ [سورة التحريم:٨].

۞ إضاءة على الطريق:

في هذه الساعة المباركة، صحح طريق حياتك، وعُد إلىٰ ربك، فأنت أعلم بحالك، وفقك الله للتوبة النصوح.

من أعظم صور التوفيق للعبد المسلم أن يلهمه الله الاستغفار في كل وقت، لا يتوقف لسانه من قول أستغفر الله .. أستغفر الله .. هذه العبادة إذا لازمها العبد فهو ذو حظ عظيم بإذن الله..

يا كرام .. تأملوا الآيات والأحاديث التي جاء فيها فضل الاستغفار .. نحن مقصرون في القراءة عن فضل الاستغفار.

(صحح موضوع الاستغفار).

۞ تأملوا وتفكروا !!

أبو طالب بالقرب من الحجر الأسود! أبو لهب عند زمزم! أبو جهل بجوار الصفا والمروة! لكنهم لم يُوفقوا إلىٰ الهدىٰ والنور والإيمان! لم يُوفقوا لوضع جباههم لربهم!

ولم يستجيبوا لرسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، إنه الخذلان والحرمان من حرمة الرحيم الرحمن.

ورحم الله من قال: الأنساب والبقاع لا تزكي أحدا.

أما صهيب الرومي، وأبو ذر الغفاري، وسلمان الفارسي، وأبو هريرة، وبلال الحبشي، وابن مسعود، فقد جمعتهم كلهم: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

وفقهم الباري بتوفيقه، فشقوا الطرق والأودية والهضاب، يحملهم الحب والحنين لرسول رب العالمين؛ حتىٰ وصلوا مكة وعاشوا علىٰ أرضها وتحت سمائها، فاطمأنت قلوبهم وأرواحهم، ونالوا شرف صحبة رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وصدقوا ما عاهدوا الله عليه، فرضوان الله عليهم ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ٢٣﴾ [سورة الأحزاب:٢٣].

بل، وتأمل في قول الحق تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢٢﴾ [سورة الأنعام:١٢٢].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (هذا مثل ضربه الله تعالىٰ للمؤمن الذي كان ميتًا أي: في الضلالة هالكًا حائرًا، فأحياه الله أي: أحيا قلبه بالإيمان، وهداه له، ووفقه لإتباع رسله)(١).

وكما قيل: الناس كلهم متساوون في تلقي نور الهداية ورسالة الوحي: كتاب الله وسنة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبعد ذلك يأتي توفيق الله ورعايته ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [سورة الأنعام: ١٢٥].

بل انظر معي إلىٰ فضل الله وكرمه وتوفيقه، بلقيس خرجت إلىٰ سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ترجو الحفاظ علىٰ عرشها وملكها، فرجعت مسلمة لله رب العالمين ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [سورة النمل: ٤٤].

وتأمل في كرم الكريم الأكرم وتوفيقه لعبده: عبد الله بن مسعود الصحابي الجليل، كيف كان؟ وكيف أصبح؟ كان راعيًا لغنم سيده الكافر عقبة بن أبي مُعيط، يخدمه ليلًا ونهارًا، ثم أصبح بعد ذلك خادمًا لمن؟! لرسول رب العالمين صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

✧ وهذا النجاشي ملك الحبشة لم ير النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حياته، فيلتقي مع أحد أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيسمع آيات تتلىٰ من القرآن العظيم، ويسمع

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٣٠).

عن أخلاق نبينا الكريم في موعظة قصيرة، فتقوده إلىٰ الإيمان والإسلام ويموت عليهما، ثم يصلي عليه نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلاة الغائب، رسول رب العالمين يصلي ويدعو له بالرحمة والمغفرة.

فأي توفيق بعد هذا؟! فتوفيق الله للعبد لا يكون بالنسب، ولا باللون، ولا بالوطن، وإنما فضل الله يؤتيه من يشاء.

✧ وهذا سُراقة بن مالك في بداية أمره يريد القبض علىٰ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويسلمه لزعماء قريش في مكة؛ لينال "الجائزة الدنيوية" مائة ناقة، وإذا بالأمور تنقلب رأسًا علىٰ عقب، ويصبح يرد الطلب عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فجعل لا يلقىٰ أحدًا من الطلب إلىٰ رده، قائلا: كفيتم هذا الوجه! أي: هذا الطريق.

فلما اطمأن أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصل إلىٰ المدينة، جعل سراقة يقص ما كان من قصته وقصة فرسه، واشتهر هذا عنه، وتناقلته الألسن حتىٰ امتلأت به نوادي مكة.

لقد عاد بعد هذه المغامرة الخاسرة ماديًا بأوفر ربح وأطيب رزق، وهو رزق الإيمان والهداية والتوفيق، ثم يُتوج بعد ذلك بأفضل من مائة ناقة؛ بسواري كسرىٰ، فسبحان مقلب القلوب، وموفق من شاء من عباده!

وفي هذا المقام - مقام التوفيق - يقول الحسن بن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (يا أصمعي، إن الله خلق الجنة لمن أطاعه وإن كان عبدًا حبشيًا، وخلق النار لمن عصاه، وإن كان ولدًا قرشيًا ! يا أصمعي، أما سمعت قول الله جَلَّ وَعَلَا ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [سورة المؤمنون: ١٠١])[1].

(١) انظر تاريخ دمشق لابن عساكر (٤١/ ٣٥٩).

ولنعلم ونحن في بداية طريقنا أن من أعظم العقوبات هو إصابة الإنسان بالخذلان في حياته الدنيا والغفلة عن آخرته ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [سورة المطففين:١٤].

عندها يصرخ صرخة الندم والألم! ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [سورة المؤمنون:٩٩-١٠٠].

قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (من استحوذت عليه الشهوات، انقطعت عنه مواد التوفيق)(١).

نعم، إنها مواد التوفيق والخيرات والبركات والفضائل.

۞ إضاءة على الطريق:

التوفيق: لا يُطلب بالمال ولا بالحسب ولا بالجاه. وإنما توفيق من الله يصطفي من يشاء من عباده(٢).

(١) انظر ذم الهوىٰ (ص: ٢٤) لابن الجوزي.

(٢) معالم علىٰ طريق التوفيق لفيصل بن سعيد شهوان الزهراني.

قبل الانطلاق

أذكركم بقول ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٣٠﴾ [سورة فصلت:٣٠].

نعم، إنه الفائز الموفق الرشيد الذي عرف ربه وآمن به، ثم استقام علىٰ طاعته حتىٰ الممات، جعلنا الله منهم بمنه وكرمه وإحسانه ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ٣٥﴾ [سورة فصلت:٣٥] ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةٗ وَحَرِيرٗا ١٢﴾ [سورة الإنسان:١٢] تأمل - أيها الموفق - كلمة "صبروا" صبروا علىٰ طاعة ربهم في زمن الغربة! صبروا وابتعدوا عن الآثام والملذات والمغريات في حياتهم الدنيا!

صبروا علىٰ ما نزل بهم من الأقدار والأكدار!

ولا يوفق لهذه الأنواع الثلاثة إلا من وفقه ربه العلي العظيم، قال الله تعالىٰ لنبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلٗا ٥﴾ [سورة المعارج:٥].

إن من أول معالم توفيق الله لعبده المؤمن أن يرزقه اليقظة والمحاسبة في حياته الدنيا، فتراه خائفًا أن يزيغ قلبه، أو تزل قدمه بعد ثبوتها، تراه يجأر إلىٰ الله؛ يسأله

الثبات والتوفيق في كل ساعة وحين، غير مبدل ولا مغير ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [سورة آل عمران:٨] نعم، لقد كان أكثر دعاء رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللهم يا مقلب القلوب، ثبت قلبي علىٰ دينك**»(١).

عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقول: «**يا وليَّ الإسلام وأهله، ثبِّتني به حتىٰ ألقاك**»(٢).

هكذا الموفق يسير في حياته الدنيا، موفقًا مُسددًا حتىٰ يلقىٰ ربه علىٰ خاتمة طيبة وعمل صالح.

يسير في الدنيا، يأكل ويشرب، وينكح ويتمتع، ويعمل ويكدح ويسافر هنا وهناك، لكن قلبه معلق بدار القرار.﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾ [سورة غافر:٣٩].

ويقول ربنا في محكم التنزيل: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [سورة النحل:٩٧].

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٨٧) وابن ماجه (٣٨٣٤)واحمد (١٢١٠٧) والحاكم في المستدرك (١٩٢٦) وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (١٠٢)و صحيح الجامع (٤٨٠١).

(٢) رواه الطبراني في الأوسط (٦٦١) وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٣/ ٤٦٢) (١٤٧٦)

معالم على طريق التوفيق: أولا: القرآن الكريم

إن من أعظم معالم التوفيق: حبك للقرآن الكريم، والعيش معه، وتلاوته آناء الليل وأطراف النهار، والعمل به والدعوة إليه، ودعمه وتشجيعه.

القرآن الذي ما أُعطي حقه وقدره في هذا الزمان ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩﴾ [سورة الإسراء: ٩].

✧ أيها الموفق تأمل في هذا الأجر الكبير:

عن عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: خرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونحن في الصفة فقال: «**أيكم يحب أن يغدو كل يوم إلىٰ بطحان أو إلىٰ العقيق فيأتي منه بناقتين كوماوين في غير إثم ولا قطيعة رحم؟**» فقلنا: يا رسول الله نحب ذلك، قال: «**أفلا يغدو أحدكم إلىٰ المسجد فيعلم، أو يقرأ آيتين من كتاب الله** عَزَّوَجَلَّ **خيرٌ له من ناقتين، وثلاث خيرٌ له من ثلاث، وأربع خيرٌ له من أربع ومن أعدادهن من الإبل**»(١).

كم تستغرق هذه الآيات من دقائق معدودة، فترىٰ العبد الموفق مثلا بعد صلاة الفجر أو العصر يجلس في مسجده ولو لعشر دقائق يقرأ ويتدبر في كتاب ربه ومولاه،

(١) رواه مسلم (٨٠٣).

يحرك قلبه ويستجيش مشاعره، يجمع من الحسنات آناء الليل وأطراف النهار، يستزيد منه رحمة وهدىٰ وشفاء وتوفيقا.

✧ **تأمل أيها الموفق:**

عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول ألم حرف ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف**»(١).

إنه القرآن الكريم! أعظم كتاب نزل من السماء ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾﴾ [سورة الإسراء: ١٠٥].

قال بعض السلف: (القرآن ثقيل لا يقدر أن يحمله إلا قلب مؤيد بالتوفيق مزين بالتوحيد)(٢).

ألم يقل ربنا: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾﴾ [سورة المزمل: ٥].

يقول الصحابي الجليل أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «البيت الذي يتلىٰ فيه كتاب الله كثر خيره، وحضرته الملائكة، وخرجت منه الشياطين، والبيت الذي لا يتلىٰ فيه كتاب الله ضاق بأهله، وقل خيره، وحضرته الشياطين، وخرجت منه الملائكة»(٣). ا.هـ.

---

(١) رواه الترمذي (٢٩١٠) والطبراني في الكبير (٨٦٤٦) والبيهقي في شعب الإيمان (١٨٣٠) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٤٦٩ - ٢٢٠٢ -).

(٢) معالم علىٰ طريق التوفيق.

(٣) رواه ابن أبي شيبة (٣٠٠٢٧) وابن المبارك في الزهد والرقائق (٧٩٠).

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [سورة الإسراء: ٨٨].

✧ **أخي الموفق:**

تأمل في هذه الآية التي تهز قلب المؤمن وتزيده إيمانا وحبا وإقبالا علىٰ كتاب ربه: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [سورة العنكبوت: ٥١].

✧ **أيها الموفق:**

أكثر من قراءة كتاب ربك الكريم، ليلًا ونهارًا، ابدأ يومك بالقرآن واختم يومك بالقرآن، واجعل لك وردًّا لا يفوتك أبدًا بإذن الله، اجعل لك محفوظًا يوميًا ولو آية واحدة من كتاب الله، تزيد بها إيمانك، إن العجز كل العجز من عجز عن حفظ ودراسة وتفسير آية واحدة فقط، ابذل الجهد، فرّغ نفسك، لا يمر عليك يوم إلا وقد قرأت فيه القرآن، اجعل بجوارك تفسيرًا ميسرًا، تطالع فيه ما لا تعرفه وتجهله، مع الاجتهاد في العمل به، والدعوة إليه، فإن هذا هو طريق الموفقين.

۞ إضاءة على الطريق:

كتاب الله بين يديك، فماذا أعطيته من جهد ووقت وتلاوة وتدبر وعمل واستجابة؟

أجب علىٰ نفسك بكل صراحة!

معالم على طريق التوفيق: ثانيًا: السنة نجاة

ومن معالم التوفيق السير علىٰ ما سار عليه محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، واتباع سنته ظاهرًا وباطنًا؛ في صلاته وصيامه وحجه وذكره وبيعه وشرائه وبيته ومعاملته وحِلِّه وترحاله، وفي كل شأن من شئون حياته، بل لا يكتفي بذلك، بل يدعو لها ويبلغها أسرته وأقاربه وأحبابه وجيرانه وكل من يعرف. هذا دأب الموفق إلىٰ أن يلقىٰ ربه وهو علىٰ سنة المصطفىٰ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [سورة الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

هذا هو الإسلام حقًّا، حياتك كلها لله، وهذا والله هو طريق التوفيق.

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾ [سورة الحشر: ٧] فالسنة كالسفينة؛ من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق كما قال مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١)، وبقدر ما تعلم وتعمل بسنة رسولك صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يكون توفيقك وسعادتك في الدنيا والآخرة.

(١) انظر مجموع الفتاوىٰ (١١/ ٦٤٣).

هذا فاروق هذه الأمة يقول: (والله إني لأُقبّلك، وأني أعلم أنك حجر، لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبَّلك ما قبلتُك)(١).

وهذا يدل دلالة واضحة صادقة في اتباع سنة نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والحرص عليها قولًا وعملًا.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: (وفي قول عمر هذا التسليم للشارع في أمور الدِّين وحُسن الاتباع فيما لم يكشف عن معانيها، وهو قاعدة عظيمة في اتباع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما يفعله ولو لم يعلم الحكمة فيه)(٢).

يقول الشيخ صالح بن طالب حفظه الله: (منزلة المؤمن تقاس باتباعه للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكلما كان تطبيقه للسنة أكثر كان عند الله أعلىٰ وأكرم؛ فالتمسك بالسنن تحصين للفرائض والواجبات، وباب لزيادة الأجر والحسنات وجنوح إلىٰ الأجمل والأكمل، وهو شرف الاتباع وحلاوة الاقتداء، فلا تزيغ به الأهواء، وفوق هذا كله محبة الله الجليل).

ويذكرنا الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله: (وقد كان صدر الصحابة ومن تبعهم يواظبون علىٰ السنن مواظبتهم علىٰ الفرائض، لا يفرقون بينهما في اغتنام ثوابهما)(٣).

---

(١) رواه البخاري (١٦٠٥).

(٢) فتح الباري لابن حجر (٣/ ٤٦٣).

(٣) المرجع السابق (٣/ ٢٦٥).

رضي الله عنهم ذلكم هو الجيل المتميز الموفق.

آهٍ ثم آه ! كم تُركت من سُنة من سنن المصطفىٰ في هذا الزمن مع الأسف ! وما ذاك إلا لضعف الإيمان في تلك القلوب، وعدم استشعار الأجور الكبيرة المترتبة علىٰ ذلك، وسيأتي علينا يوم نعرف فيه قدر وعظمة الحسنة الواحدة.

۞ بل إن من علامات حب السُّنة النبوية أيها الموفق ما يلي:

- كثرة قراءتها ومطالعة كتبها - وها هي بين أيدينا مطبوعة أجمل الطبعات الفاخرة - صحيح البخاري، ومسلم، إلخ ...، فهل من قارئ لها؟

- محاولة حفظها والحزن والأسف علىٰ فوات ذلك.

- الفرح بمجالسها ومنتدياتها ولقاءاتها.

- الشوق إليها إذا طالت الغيبة عنها.

- تطبيقها في جميع جوانب الحياة.

✧ **أيها الموفق:**

ارفع رأسك، واعتز بدينك، واتبع نبيك؛ فهو الأسوة والقدوة لك، وسر علىٰ بركة الله؛ فإنك علىٰ الحق المبين.

وتذكر دائما قول فاروق هذه الأمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «نحن قوم أعزنا الله بالإسلام، فمهما ابتغينا العزة في غيره أذلنا الله».

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [سورة الأحزاب: ٢١].

قال ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وهذه الأسوة الحسنة إنما يسلكها ويوفق لها من كان يرجو الله واليوم الآخر، فإن ما معه من الإيمان وخوف الله ورجاء ثوابه وخوف عقابه يحثه علىٰ التأسي بالرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)(١).

وصدق الله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾ [سورة النساء:٨٠].

إضاءة على الطريق:

الموفق من جعل سنة نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمام عينيه، متبعًا لها عاملًا بها، داعيًا إليها.

(١) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٦٦١).

معالم على طريق التوفيق: الوضوء

ومن معالم التوفيق الوضوء، ألا ما أجمل هذه الكلمة علىٰ قلب المؤمن الصادق! لها في قلبه حلاوة؛ فالوضوء من الوضاءة وهي الحسن والبهاء والجمال، والوضوء مفتاح وشرط للصلاة للوقوف بين يدي ذي الجلال والإكرام، فالموفق الذي يسعىٰ جاهدًا علىٰ أن يكون علىٰ وضوء وطهارة.

فالوضوء نظافة وطهارة وغسل للذنوب والخطايا والآثام التي ابتلينا بها في هذه الأزمنة، بل الوضوء أجر وثواب كبير: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [سورة البقرة:٢٢٢]، الوضوء للصلاة، الوضوء عند النوم، الوضوء علىٰ قدر استطاعتك في حلك وسفرك وترحالك.

الوضوء رفع للدرجات، وكسب للحسنات، وحطٌّ للسيئات.

تأمل، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن، فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء أو آخر قطر الماء، فإذا غسل يديه خرجت من يديه كل خطيئة كان بطشتها يداه مع الماء أو آخر قطر الماء، فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء أو مع آخر قطر الماء، حتىٰ يخرج نقيًا من الذنوب**»(١).

(١) رواه مسلم (٢٤٤).

تأمل في حال هذا الموفق مؤذن الإسلام الأول الذي رفعه الله بالإسلام: بلال بن رباح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لبلال عند صلاة الفجر: «**يا بلال، حدثني بأرجىٰ عمل عملته في الإسلام؛ فإني سمعت دف نعليك بين يدي في الجنة**» قال: ما عملتُ عملًا أرجىٰ عندي أني لم أتطهر طُهورًا في ساعة من ليل أو نهار إلا صليت بذلك الطُهور ما كتب لي أن أُصلي(١).

وهذا في زمن يكاد أن يندر فيه الماء للشرب، ناهيك عن ماء للوضوء، فكيف نحن اليوم - ولله الحمد والمنة - والماء متوفر في كل مكان في بيوتنا، في مساجدنا، وعلىٰ الطرقات والأسواق وغيرها، ما بقي علينا إلا أن نشمر عن سواعد الجد والسير علىٰ هذا الطريق.

بل كان علي بن الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا توضأ اصفر لونه، فقيل له: ما هذا الذي يعتادك عند الوضوء؟ قال: «أتدرون بين يدي مَنْ أريد أن أقوم»(٢)؟!

إنها قلوب صادقة، ونفوس موفقة عرفت كيف تعظم الله حقًّا؛ أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وهذا هو طريق التوفيق والإحسان ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة الحج:٣٢].

---

(١) رواه البخاري (١١٤٩).

(٢) انظر مختصر تاريخ دمشق (١٧/ ٢٣٦) ومختصر منهاج القاصدين (ص: ٢٩) إحياء علوم الدين (١/ ١٥١) الترغيب والترهيب للمنذري (١/ ٢٥٥).

وصدق المزني[1] أبو بكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ حينما قال: (من مثلك يا ابن آدم؟ خُلِّي بينك وبين المحراب والماء، كلما شئت دخلت علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ ليس بينك وبينه ترجمان)[2]!

قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من توضأ فأحسن الوضوء خرجت خطاياه من جسده حتىٰ تخرج من تحت أظفاره**»[3].

(١) بكر بن عبد الله بن عمرو أبو عبد الله المزني الإمام، القدوة، الواعظ، الحجة، أبو عبد الله المزني، البصري، أحد الأعلام، يذكر مع الحسن، وابن سيرين. ثقة ثبت جليل مات سنة ست ومائة وصحح الذهبي وفاته سنة ثمان ومائة انظر سير أعلام النبلاء و (٤/ ٥٣٢) التاريخ وأسماء المحدثين وكناهم (ص: ١٤٧).

(٢) رواه حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٢/ ٢٢٩) وأحمد في الزهد (١٧٥٢) وانظر صفة الصفوة (٢/ ١٤٧) الثقات لابن حبان (٦/ ٤٠).

(٣) رواه مسلم (٢٤٥).

معالم على طريق التوفيق: ثالثا الدعاء

﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾ [سورة الأعراف:٥٥].

ومن معالم التوفيق لعبده أن يدعو ربه الكريم العظيم في كل وقت وحين فهو القائل سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ١٨٦﴾ [سورة البقرة:١٨٦].

الموفق - حقًّا - من يكثر من دعاء ربه في كل ساعة وحين؛ لعله أن يوافق ساعة إجابة، فيظفر بمطلوبه، فيسعد سعادة لا يشقىٰ بعدها أبدًا.

فإذا فتح الفتاح العليم علىٰ عبده باب الدعاء، تتابعت عليه الخيرات والبركات من كل مكان.

✧ **إذن أيها الموفق**: من الذي يمنعك من دعاء ربك؟ من الذي يحول بينك وبين ربك؟

لو اجتمع من في الأرض جميعًا علىٰ أن يمنعوك، لم يستطيعوا؛ لأن الباب مفتوح بينك وبين ربك، ليس عليه حاجب أو ترجمان !

وصدق رسولنا الكريم حين قال: «**الدعاء هو العبادة**»(١).

(١) رواه أبو داود (١٤٧٩) والترمذي (٢٩٦٩) والنسائي (١١٤٠٠) وأحمد (١٨٣٥٢) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٤٠٧).

الرسول الرؤوف الرحيم الذي طالما دعا ربه لنفسه وأهله وأصحابه وأمته والخلق أجمعين، حتىٰ قال عنه ربه جَلَّوَعَلَا: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝٨﴾ [سورة فاطر: ٨].

الموفق من يتحرىٰ أوقات الإجابة، ويغتنم الفرص، ويسدد الهدف داعيًا لنفسه ولأهله وأمته بالتوفيق والسداد والصلاح.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والعبد كلما كان أذل لله وأعظم افتقارًا وخضوعًا له، كان أقرب له وأعز له وأعظم لقدره، فأسعد الخلق أعظم عبودية لله)(١) ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝٥٥﴾ [سورة الأعراف: ٥٥].

وتأمل معي في هذا الدعاء القرآني لهذا العبد الموفق: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝١٥﴾ [سورة الأحقاف: ١٥].

✧ **أيها الموفق**: تعلَّم هذا الدعاء، وعلِّمه أهل بيتك ومن تحب، تفز بخير وأجر عظيم.

وما وُفِّق من وفق، وفاز من فاز، وسلك طريق التوفيق، وظل ثابتًا عليه حتىٰ الممات، إلا بسبب دعوة صادقة خرجت من قلبه أو من قلب غيره فتحت لها أبواب السماء!

كم من فقير أغناه الله بدعوة وجهها إلىٰ ربه أو وجهَّها له غيره في ظهر الغيب!

(١) مجموع الفتاوىٰ (١/ ٣٩).

كم من صاحب حاجة قضىٰ الله حاجته كان وراء ذلك تضرع وبكاء ودعاء!

كم من طالب علم سلك الطريق القويم، أصبح علمه مباركا أينما حل، كان بسبب دعوة أطلقها هو أو غيره خرجت من قلب أصاب إخلاصا، فتحت لها أبواب السماء!

كم من والد رُزق بأبناء صالحين مصلحين، كان وراء ذلك دعوة في ظهر الغيب!

ما أجمل أن يرفع العبد يديه إلىٰ السماء داعيًا ربه القادر المجيب الفعال لما يريد، طارحًا مسألته بذل وخضوع وخشوع وانكسار، فهو مجيب الدعوات وقاضي الحاجات، مفرج الهموم والغموم، عندها:

أبشر بالذي يسرك من الكريم الرحمن: قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن ربك حييٌّ كريم، يستحي أن يبسط العبد يديه إليه فيردَّهما صفرًا**»(١).

إنه أكرم من دُعي، وخير من رُجي، فأين السائلون لحوائجهم؟ وعن أبي هريرة مرفوعًا: «**من سرَّه أن يستجيب الله له عند الشدائد والكرب، فليكثر الدعاء في الرخاء**»(٢).

---

(١) رواه ابن ماجه (٣٨٦٥) والطبراني في الكبير (١٣٥٥٧) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٣٥٥٧).

(٢) رواه الترمذي (٣٣٨٢) والحاكم في المستدرك (١٩٩٧) وأبو يعلىٰ (٦٣٩٦) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٦٢٩٠).

✧ **أيها الموفق:**

قم في الدُّجىٰ قيام مشفق سائل منكسر بين يدي ربه، وأجب من ينادي:

هل من سائل فأعطيه؟ هل من داع فأستجيب له؟ هل من مستغفر فأغفر له؟

لعلك تحظىٰ بالقبول الحسن والتوفيق الرشيد.

وصدق عمر الفاروق حين قال: «إني لا أحمل همَّ الإجابة، ولكن أحمل همَّ الدعاء»(١).

سهام الليل لا تُخطىٰ ولكن لها أمدٌ وللأمد انقضاء

قال عطاء رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (متىٰ أطلق الله لسانك بالدعاء فاعلم أنه يريد أن يعطيك ما تشاء مهما عز مرادك وعظم مطلبك)(٢).

إنه الدعاء مفتاح لكل خير يناله العبد في الدنيا والآخرة، فنلزم هذا المفتاح العظيم؛ فإنه باب لجلب الخيرات، وتنزُّل الرحمات.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الجواب الكافي: (الدعاء من أقوىٰ الأسباب في دفع المكروه، وحصول المطلوب، وهو عدو البلاء، يدافعه ويعالجه، ويمنع نزوله، ويرفعه إذا نزل، أو يخفِّفه إذا نزل، وسلاح المؤمن، فإذا اجتمع مع الدعاء حضور القلب، وجمعيَّته بكليته علىٰ المطلوب، وصادف وقتًا من أوقات الإجابة، وصادف خشوعًا في القلب، وانكسارًا بين يدي الرب، وذُلًّا له، وتضرعًا ورقة

(١) انظر مجموع الفتاوىٰ (٨/ ١٩٣) الفوائد لابن القيم (ص: ٩٧) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٣/ ١٠٣).

(٢) أرشيف ملتقىٰ أهل التفسير.

واستقبال القبلة، وكان علىٰ طهر، ورفع يديه إلىٰ الله تعالىٰ، وبدأ بالحمد، والثناء عليه، ثم ثنىٰ بالصلاة علىٰ محمد عبده ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم قدَّم بين دعائه رغبة ورهبة، وتوسل إليه بأسمائه. وصفاته وتوحيده، وقدم بين يدي دعائه صدقة؛ فإن هذا الدعاء لا يكاد يرد)[1].

✧ **أيها الموفق:**

من الآن قل: يا ربِّ، أسألك التوفيق، وأطلب منك التيسير، ولا حول ولا قوة إلا بك يا رحمن يا رحيم. اللهم وفقني لصالح القول والعمل، واحفظني من الخطأ والزلل يا أرحم الراحمين.

۞ إضاءة على الطريق:

أخي: لا تدري متىٰ تفتح لك أبواب السماء.

استمر في دعائك في كل وقت وحين؛ لعلك تفوز بدعوة مباركة.

(١) الداء والدواء (١/ ٩).

معالم على طريق التوفيق: رابعًا: نعمة المال

من معالم التوفيق إذا أنعم المنعم المنان عليك بالمال الوفير لحكمة يعلمها الرب جَلَّوَعَلَا، فإذا اجتمع الصلاح في المرء والمال الحلال فهذا هو التوفيق، وبشّره بالحياة الطيبة.

فقد قال نبينا صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**نعم المال الصالح للرجل الصالح**»(١). عن عبد الله ابن عمرو بن العاص.

فتجد الموفق يسخر ماله في طاعة ربه، فتراه يسأل عن عمل الخير هنا وهناك؛ لكي يصرفه في وجوه البر والإحسان؛ لأن قلوب الأبرار تغلي بما فيها من جواهر وكنوز طيبة وعمل صالح، وما أكثرها فهي بحر لا ساحل له، وتجارة مع الله لن تبور، ولا يُوفق لهذا إلا مُوفق سعيد، وعلىٰ خُطىٰ التوفيق، فسِر وثابر.

﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾﴾

[سورة البقرة: ٢٧٢].

(١) رواه أحمد (١٧٧٦٣) والحاكم في المستدرك (٢٩٢٦) والبيهقي في شعب الإيمان (١١٩٠) وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٣٧٥٦).

يقول عبد الرحمن بن عوف رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: (يا حبذا المال أصون به عرضي وأتقرب به إلىٰ ربي)(١).

وهو الذي كان يُسير القوافل الكثيرة المليئة بالخيرات في سبيل مرضاة الله، فيجعلها صدقة للفقراء والمساكين.

وصدق الله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾ [سورة الليل:٥-٧] ولنعلم أيضًا أن من أثرياء المسلمين الكبار من كان من العشرة المبشرين بالجنة، ولم يمنعهم الثراء والغنىٰ من المسابقة والمسارعة في الخيرات، بل ونيل شرف صحبة رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ۝٢٣﴾ [سورة الأحزاب:٢٣].

✧ **أيها الموفق:**

تاجر مع الله، في الفقراء والمساكين، اسمح دموع اليتامىٰ والأرامل والمحتاجين، أعن بمالك طلاب العلم الفقراء، يكن لك من الأجور ما لا يعلمه إلا الله جَلَّجَلَالُهُ.

والله لا ينفعك إلا ما قدمت يداك، حقيقة لابد أن تعرفها حق المعرفة.

ألم تسمع قول الكريم الذي أعطاك وحباك: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [سورة النور:٣٣].

---

(١) انظر أدب الدنيا والدين (ص: ٣٢٩) لأبي الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى: ٤٥٠هـ).

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أنهم ذبحوا شاةً، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما بقي منها؟**» قالت: ما بقي إلا كَتِفُها، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بقي كُلُّها، غير كتفها**»(١).

إذن، هيّا تحرك الآن، تفقدهم في حيِّك في قريتك، في مدينتك، ولا تخش من ذي العرش إقلالا.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: (ومن الأسباب التي تزيل الهم والغم والقلق، الإحسان إلىٰ الخلق)(٢): ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [سورة الأعراف:٥٦] فكن من المحسنين الموفقين.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [سورة سبأ:٣٩].

✧ **أيها الموفق:**

إليك هذا الكنز النبوي الذي تفرح به القلوب المؤمنة الواثقة بما عند الله خير وأبقىٰ.

يقول رسول الهدىٰ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقًا خلفا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكًا تلفًا**»(٣).

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٧٠) وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (١٩١٩) وسلسلة الأحاديث الصحيحة (٢٥٤٤).

(٢) الوسائل المفيدة للحياة السعيدة (ص: ١٦)

(٣) رواه البخاري (١٤٤٢) ومسلم (١٠١٠).

إضاءة على الطريق:

ما بين يديك من أموال، فهو من فضل الله عليك، ليس بكسبك ولا بكدحك.

فاعرف قدر نفسك.

۞ إضاءة على الطريق: معالم على طريق التوفيق طال عمره وحسن عمله:

ومن معالم التوفيق التي نراها يوميًّا في أقاربنا وأحبابنا وجيراننا وعلمائنا من كبار السن ممن بلغ السبعين بل ويسير إلىٰ التسعين عامًا وهو ممتعٌ بعقله وإن ضعف بصره ورق عظمه فتراه محافظًا علىٰ الصلوات في المسجد ذاكرًا لله تعالىٰ، يحب الصدقة ويحث عليها بل وبعضهم مهتم بالدعوة إلىٰ الله تعالىٰ إلىٰ آخر أيام حياته.

﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ٩٩﴾ [سورة الحجر:٩٩] نعم، كل يوم يعيشه المؤمن غنيمة، فالأيام والشهور والسنين لا تزيد الموفق إلا قربًا من ربه وخالقه، بل كان من دعائه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، والموت راحة لي من كل شر**»(١).

وممن أدركنا من هؤلاء العلامة ابن باز، والعلامة ابن عثيمين، والعلامة ابن جبرين رحم الله الجميع؛ ففي حياتهم الدروس والعبر في طلب العلم والدعوة إلىٰ الله ونفع الخلق وبذل المعروف.

عن جابر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ أن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال: «**ألا أخبركم بخياركم؟ خياركم أطولكم أعماراً، وأحسنكم أعمالًا**»(٢).

---

(١) رواه مسلم (٢٧٢٠).

(٢) رواه أحمد (٧٢١٤) والبيهقي في الكبرىٰ (٦٥٢٧) وابن حبان (٢٩٨١) والحاكم في المستدرك =

وصدق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين قال: «**خير الناس من طال عمره وحسن عمله، وشر الناس من طال عمره وساء عمله**»(١).

✧ **أيها الموفق**: كن كالنخلة كلما طال عمرها ازداد خيرها ونفعها، وهكذا المؤمن الموفق إذا طال عمره ازداد خيره وبره وإحسانه علىٰ نفسه وعلىٰ الآخرين.

✧ **أيها الموفق**:

كلما تقدم بك العمر، وتقدمت بك السنين، فاعلم أنك قد اقترب أجلك، فيحسن بك إحسان العمل الصالح والحرص عليه، فمن طال عمره وهو مازال موفقًا مسددًا حريصًا علىٰ الأعمال الصالحة، يزدد كل يوم أجرًا وثوابًا؛ فهذا من توفيق الله له، خلاف المحروم والمخذول يطول عمره وهو ما زال في عمله السيئ، وفساده بشتىٰ صوره وأشكاله في هذا الزمن.

قف مع هذه الآية الكريمة، وأعد قراءتها أكثر من مرة: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [سورة الجاثية: ٢١].

والموفق من علم أن الحياة الدنيا قصيرة والآخرة خير وأبقىٰ، واعلم علم اليقين أنها مهما طالت فهي قصيرة وحقيرة !

= (١٢٥٥) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٢٦٢).

(١) رواه الترمذي (٢٣٣٠) وأحمد (٢٠٥٠٤) والطبراني في الصغير (٨١٨)والأوسط (٥٤٤٩) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٢٩٦).

عن سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضةٍ ما سقىٰ كافرًا منها شربة ماء**»(١).

وتأمل في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**أعمار أمتي ما بين الستين إلىٰ السبعين، وأقلُّهم من يجوز ذلك**»(٢). ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [سورة الكهف: ١١٠].

(١) رواه الترمذي (٢٣٢٠) والبيهقي في شعب الإيمان (٩٩٨٢) وابن ماجه (٤١١٠)والطبراني في الكبير (٥٩٢١) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٢٩٢).

(٢) رواه الترمذي (٣٥٥٠) وابن ماجه (٤٢٣٦) ابن حبان (٢٩٨٠) وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٠٧٣).

معالم على طريق التوفيق: مزامير آل داود

ومن معالم التوفيق في الحياة الدنيا من رزقهم الكريم المنان بأصوات جميلة حسنة، فمنَّ عليهم ربهم بأن استعملوها وسخروها في طاعة ربهم، فقرؤوا القرآن الكريم، وعلموه ونشروه في الآفاق، في الإذاعات والفضائيات والمواقع الالكترونية.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارتق ورتِّل كما كنت ترتل في الدنيا؛ فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها**»(١).

وكذلك نشرهم لسُّنة نبيهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتعليمهم لها قراءة ودراسة وشرحًا؛ وذلك لحسن وجمال أصواتهم، كل ذلك من توفيق الله لهم ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ [سورة الفرقان: ٧٤].

✧ **أيها الموفق:**

يستمع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ليلة من الليالي لأبي موسىٰ الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو يتغنىٰ ويرتل، ويتلذذ بقراءة القرآن الكريم، وكان حسن الصوت جميل

(١) رواه الترمذي (٢٩١٤) وأبو داود (١٤٦٤) وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح (٢١٣٤) والسلسلة الصحيحة (٢٢٤٠).

الأداء، أعطاه الله هذه النعمة "جمال الصوت وعذوبته" فسخرها في طاعة ربه، فيشجعه صلوات ربي وسلامه عليه قائلًا: «**لقد أُوتيت مزمارًا من مزامير آل داود**»(١).

إنه وسام فخر وشرف وعز وتقدير من الدرجة الأولىٰ مع مرتبة الشرف والعز والسُؤدد.

فيرد أبو موسىٰ قائلًا: «لو كنت أعلم لحبرته لك تحبيرًا».

فهنيئًا لك أبا موسىٰ بما حباك ربك وأعطاك، وهنيئًا لكل من سار علىٰ دربك من القراء الموفقين.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ٢٩ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ ٣٠﴾ [سورة فاطر: ٢٩-٣٠].

قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**إن من أحسن الناس صوتًا بالقرآن الذي إذا سمعته يقرأ، رأيت أنه يخشىٰ الله**»(٢).

بل إن بعضهم قد رحلوا من الدنيا، مرتهنون في قبورهم، لكن بقيت آثارهم الحميدة وأصواتهم بكتاب الله ندية عطرة، تُتلىٰ آناء الليل وأطراف النهار، فهنيئًا لهم بالحسنات والثواب الكبير من ربهم بإذن الله تعالىٰ.﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ ١٢﴾ [سورة يس: ١٢].

---

(١) رواه البخاري (٥٠٤٨) ومسلم (٧٩٣).

(٢) رواه ابن ماجه (١٣٣٩) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٢٠٢ - ٩٧٨).

ألا، وإن من الحسرة والندامة ما يقطع القلب، من أُعطوا نعمة الصوت الحسن الجميل، فسخروها وخسروها في أوتار وأنغام وألحان وفنون ! ألم يقرؤوا في كتاب ربهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٦﴾ [سورة لقمان:٦].

ونقول لهم: عُودوا إلىٰ ربكم، أين إيمانكم؟ حاسبوا أنفسكم، راجعوا أعمالكم، ماذا قدمتم لأمتكم، مادام في العمر بقية، وباب التوبة مفتوح.

وتأملوا في رحمة ربكم: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٧٠ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابٗا ٧١﴾ [سورة الفرقان:٧٠-٧١].

✧ **أخي الموفق:**

هذا هو طريق التوفيق، والمحروم من حرم نفسه من الخيرات والفضائل ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ١٠﴾ [سورة الشمس:٩-١٠].

۞ إضاءة على الطريق:

اللهم آت نفوسنا تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها.

معالم على طريق التوفيق الذرية الطيبة

ومن معالم التوفيق أن يرزق العبد بذرية طيبة في حياته الدنيا، تسمع وتطيع، ذريةً يُعين بعضهم بعضًا علىٰ طاعة ربهم، يتواصون بالصبر والمرحمة، يتعاونون علىٰ أمور دنياهم، يحترمون كبيرهم ويرحمون صغيرهم، ويتفقدون قريبهم، يلتقون دائمًا في المناسبات والأفراح وعند الأزمات والمُلمات، إنها عائلة كبيرة مترامية الأطراف، لكنك تراهم كالجسد الواحد يجمعهم الحب والإخاء والسعادة والتعاون والتواصل والتراحم.

وإذا أراد الله بأهل بيت خيرًا أدخل عليهم الرفق، إنه التوفيق! الموفق من يدعو ربه ليلًا ونهارًا بالذرية الطيبة ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾﴾ [سورة آل عمران:٣٨] وسبق أن قرأت هذه القصة اللطيفة التي تبين لنا ثمرة وبر الذرية الطيبة، في سنة مضت أراد الأب أن يحج، فتوفاه الله يوم الثالث من ذي الحجة، ولما كان يوم عرفة، التقىٰ أولاده وجهًا لوجه بقدر الله؛ ليتبين أن كل واحد منهم قد نوىٰ، وجاء للحج عن أبيه دون أن يخبر أحد منهم الآخر سلفًا بما عزم عليه.

فهنيئًا له بهذه الذرية المباركة! ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾﴾ [سورة نوح:٢٨].

بل تأمل دعاءهم وتضرعهم لربهم بصلاح ذريتهم: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ ۖ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [سورة الأحقاف:١٥] ومن عجائب ما يروىٰ من قصص البر بالآباء ما ذكره أحد الدعاة قائلًا: تنازع أخ وأخته عند القاضي، كل منهما يريد أن تبقىٰ أمهما المقعدة عنده، فالبنت تقول: يا شيخ، من يحملها لدورة المياه؟ فإنه لا يجوز له، فإما أن تحملها زوجه أو الخادمة، وأنا ابنتها وأحق بها، والرجل يقول: يا شيخ، أنا لا أريد أن تكون عند زوج أختي بل أريدها عندي، فحكم القاضي بأن تكون عند البنت، فغضب الابن وقال: اتق الله يا شيخ، سأخاصمك أمام الله جَلَّوَعَلَا، أتحرمني من أمي؟

✧ **أيها الموفق**: هكذا فكن، بارك الله فيك.

۞ إضاءة على الطريق:

وأنت ساجد بين يدي ربك العظيم، ادع لذريتك بالهدىٰ وتيسير الهدىٰ لهم، وصرف السوء والفحشاء عنهم.

معالم على طريق التوفيق الكسب الحلال

ومن علامة التوفيق في الدنيا أن يوفق العبد لكسب طيب حلال "وظيفة أو عمل أو تجارة" وما أكثره ولله الحمد! تأمل أيها الموفق هذا الخطاب الرباني، كيف ينسكب في قلب المؤمن؟

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة الزخرف:٣٢]. وليست العبرة بالعمل الكبير المشار إليه بالبنان، وإنما بالعمل الشريف وإن دق وصغر في أعين الناس!

فالعبرة باللقمة الحلال لا باللقمة الكبيرة الحرام فهذا أشرف خلق الله، سيد ولد آدم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد رعىٰ الأغنام ثم سافر وتاجر بالمال من أجل الكسب الحلال الطيب ومن قبل ذلك الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

فالموفق تراه يبيع أو يشتري أو يتعامل مع الخلق فيما أُسند إليه وهو مطمئن القلب من عمله، لا ريبة فيه ولا شُبهة، ينفع به نفسه وأسرته ويقدم خدمة لأمته، خير الناس أنفعهم للناس، يؤدي الأمانة ويحفظ المسئولية، يراقب المطلع عليه في كل صغيرة وكبيرة، كلما حدثته نفسه بالتقاعس أو التواني عن الأمانة قرعها بسوط المراقبة والخشية، لسان حاله يرد عليه قائلًا: أين الله؟!

تراه بعيدًا كل البعد بحفظ الله وتوفيقه عن الحرام أو الشبهة؛ من غش وكذب واختلاس وفن ورقص وخمر وتهريب مخدرات..، إلىٰ غير ذلك.

ومن ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه، بل ويجد بعد ذلك إيمانًا في قلبه، وسعة رزقه، وبركة في عمره، وصحة وعافية وفلاحًا وتوفيقًا. ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾ [سورة العلق:١٤].

قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لأن يأخذ أحدكم حبله، فيأتي بحزمة الحطب علىٰ ظهره، فيبيعها فيكف الله بها وجهه، خير له من أن يسأل الناس؛ أعطوه أو منعوه**»(١).

وسئل الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (بم تلين القلوب. فماذا كان جوابه؟ هل ألقىٰ محاضرة؟ لا!، وإنما قال: بأكل الحلال)(٢).

وكان أبو أيوب السختياني رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: (الزم سوقك؛ فإنك لا تزال كريمًا ما لم تحتج إلىٰ أحد)(٣).

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾﴾ [سورة إبراهيم:٤٢] إننا في أمس الحاجة اليوم إلىٰ القوىٰ الأمين، ولا يكون ذلك إلا بتوفيق الحق المبين.

---

(١) رواه البخاري (١٤٧١).

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٩/ ١٨٢)وانظر مناقب الإمام أحمد (ص: ٢٦٩) و طبقات الحنابلة (١/ ٢١٩).

(٣) رواه أبو نعيم في الحلية (٣/ ١١).

القوي الأمين في الدوائر والوزارات والأمانات.

القوي الأمين في تعليمنا ومدارسنا.

القوي الأمين في تجارتنا ومحلاتنا.

القوي الأمين في كل شأن من شئون حياتنا. ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾ [سورة القصص: ٢٦].

✧ **أيها الموفق**: بأكل الحلال الطيب تلين القلوب وتسير في طريق السعادة والتوفيق.

قال إبراهيم بن أدهم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ما أدرك من أدرك إلا من كان يعقل ما يدخل جوفه)(١).

فانظر يا عبد الله، ما عملك وما كسبك وما وظيفتك وما يدخل جوفك، بل انظر الآن ما يدخل في حساباتك البنكية، فأنت أعلم بحالك، والله مطلع عليك: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾﴾ [سورة التوبة: ٧٨].

يقول وهيب بن الورد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (لو قمت مقام هذه السارية - أي تصلي - ما نفعك شيء حتىٰ تنظر ما يدخل بطنك، حلال أو حرام)(٢)؟

وكما قيل: بطنك شبر في شبر، فلم يدخلك النار؟!

---

(١) إحياء علوم الدين (٢/ ٩١).

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٨/ ١٥٨) وانظر جامع العلوم والحكم (١/ ٢٦٣).

✧ **أيها الموفق**: يعيش المسلم فقيرًا مسكينًا يكفيه القليل من الطعام والشراب والمال والمسكن، لكنه يعيش في أمن وطمأنينة وسعادة وعزة وحياة طيبة لا يعلمها إلا الله، ولو سكن الإنسان أعظم القصور والدور ومشىٰ في الرفاهية والرخاء وماله من الخبيث، فاعلم أنه في شقاء وخوف وقلق وضنك !

وكتب رجل إلىٰ داود الطائي يطلب منه الموعظة فكتب إليه: (أما بعد: فارض من الدنيا باليسير من سلامة دينك، كما رضي أقوام بالكثير مع ذهاب دينهم، والسلام)[1].

۞ إضاءة على الطريق:

ارض بما قسم الله لك؛ لتكن أغنىٰ الناس. فما أعظمها من وصية نبوية!

(١) التبصرة لابن الجوزي (٢/ ٨٤) الزهد الكبير للبيهقي (ص: ١٤٢) ذم الهوىٰ (ص: ٦٦٩).

معالم على طريق التوفيق: القبول في الأرض

ومن علامة التوفيق حب الناس لك ودعاؤهم لك، يحبك الجار والقريب والبعيد، فتجد هذا يسكن في بلد، والآخر في بلد آخر في دولة أخرىٰ، فترتفع يداه ويدعو لك بالتوفيق والسداد من شغاف قلبه كلما تذكرك أو رآك.

إن من أعظم التوفيق في الدنيا أن يضع الله لك القبول في حياتك الدنيا.

✧ **أيها الموفق:**

قف بقلبك قبل عينيك وأنت تقرأ هذا الحديث النبوي وما فيه من الجمال والكمال.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله تعالىٰ إذا أحب عبدًا دعا جبريل فقال: إني أحب فلانًا فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله تعالىٰ يحب فلانًا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض**»(١).

القبول في الأرض: معناه التوفيق لما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال، أن تعيش الحياة الطيبة، حياة السعداء، عابدًا حامدًا شاكرًا محسنًا داعيًا لله

(١) رواه مسلم (٢٦٣٧).

تعالىٰ، إنه القبول والتوفيق لا يحد بحد ولا وصف! نعمة من نعم الله علىٰ عبده الموفق.

القبول في الأرض: أن تهتف قلوب المسلمين والمحبين داعية لك بالتوفيق والسداد والرشاد.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ٩٦﴾ [سورة مريم: ٩٦].

قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ما أقبل عبد إلىٰ الله، إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه، حتىٰ يرزقه مودتهم)(١)، وقال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (يحببهم ويحببهم إلىٰ خلقه)(٢).

عن أبي الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه سمع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**من دعا لأخيه بظهر الغيب قال الملك الموكل به آمين ولك بمثل**»(٣) هل تعرف معنىٰ ولك بمثل، أي: أعطاك الله بمثل ما دعوت لأخيك بظهر الغيب من خيري الدنيا والآخرة.

ومن يفعل ذلك غير الموفقين، أصحاب القلوب الطاهرة من الغل والحسد، ينفعون أنفسهم وإخوانهم، وما ذاك إلا لسلامة وصفاء قلوبهم وصدورهم!

﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ٨٤﴾ [سورة الشعراء: ٨٤].

---

(١) تفسير الطبري = جامع البيان (١٨/ ٢٦٢).

(٢) المرجع السابق.

(٣) رواه مسلم (٢٧٣٢).

ثم اعلم وفقني الله وإياك علىٰ طريق التوفيق أن من أعظم أسباب القبول في الأرض والسماء الإخلاص، فهل سمعت بالإخلاص؟

إنه سر القبول عند الله الكريم المنان ثم عند خلقه.

۞ أيها السائر على طريق التوفيق:

ادع ربك ليلًا ونهارًا، وتحرَّىٰ أوقات الإجابة والأماكن الفاضلة المباركة كالحرمين الشريفين، واسجد وتضرع، ومرَّغ جبينك، وانكسر بين يدي ربك، وقل: يا رب، أسألك الإخلاص في القول والعمل.

فالإخلاص عزيز المنال، لا ينال إلا بإيمان وتوفيق وعمل صالح وجهد وجهاد وصبر ومصابرة ومرابطة واتباع وبذل وتضحية وتقوىٰ.

فهل عرفت الطريق إلىٰ التوفيق؟ فهنيئًا للمخلصين المقبولين الموفقين، ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [سورة البينة: ٥].

۞ إضاءة على الطريق:

يقول ابن حبان: (أفضل ذوي العقول منزلة أدومهم لنفسه محاسبة)(١).

(١) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء (ص: ١٩) لمحمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (المتوفىٰ: ٣٥٤هـ).

معالم على طريق التوفيق: دعاة الفضيلة

ومن معالم التوفيق مشاهدة القنوات الفضائية الهادفة المحافظة التي تدلك علىٰ الخير، والتي تنشر الفضيلة، وتحارب الرذيلة، وتغرس القيم والأخلاق والفضائل في قلوب مشاهديها قبل أعينهم.

أنهم دعاة الفضيلة والهدىٰ والنور، في زمن يكاد أن ينتحر فيه العفاف والطهر، بذلوا أموالهم وأوقاتهم في سبيل من؟! من أجل تبصير الناس بدينهم، وليعبدوا ربهم علىٰ بصيرة: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [سورة الذاريات:٥٥].

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**من دعا إلىٰ هدىٰ كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا، ومن دعا إلىٰ ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا**»(١).

والموفق حقا من كان مفتاحا وسببا لكل خير. فبارك الله في مساعيكم وجهودكم.

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [سورة الإسراء:٣٦].

(١) رواه مسلم (٢٦٧٤).

ويا حسرتي علىٰ من ضلَّ الطريق وخُذل، وكان من أعوان الشيطان، يهدم ولا يبني، ينشر الرذيلة ويحميها ويدافع عنها ويدعمها، ويدعو لها من خلال الفضائيات والحوارات والصحف وغيرها، ضل سعيه وعمله وهو يظن أنه يُحسنُ صنعا، وهذا هو طريق الخذلان! ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ٢٥﴾ [سورة النحل:٢٥].

قلمٌ مسموم، وفكر منكوس، وتبرج وعُري، ودعوىٰ آثمة وشهوات وشبهات وروايات، يراها ويسمعها القريب والبعيد، لماذا كل هذا؟! هل ضاق عليكم باب الحلال، فطرقتم أبواب الحرام؟!

ألم تسمعوا بقول الجبار القهار: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ١٩﴾ [سورة النور:١٩].

قال العلامة ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أي: يحب أن تشتهر الفاحشة؛ وذلك لغشه المسلمين، ومحبة الشر لهم، وجراءته علىٰ أعراضهم، فإذا كان هذا الوعيد لمجرد محبة أن تشيع الفاحشة، واستحلاء ذلك بالقلب، فكيف بما هو أعظم من ذلك من إظهاره ونقله)(١).

وأنت اليوم تنظر وتسمع ما يُعرض علىٰ الشاشات والجوالات والفضائيات علىٰ الهواء مباشرة، فاحذر من دعاة الرذيلة ولصوص الأعراض!

(١) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٦٤).

ويلفت النظر الشيخ علي الطنطاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلىٰ هذا المعلم بقوله: (من عجائب حكمة الله أنه جعل مع الفضيلة ثوابها: الصحة والنشاط، وجعل مع الرذيلة عقابها: الانحطاط والمرض)[1] ا.هـ !

۞ إضاءة على الطريق:

طريق الفضيلة: عز وشموخ وأجر وثواب، طريق الرذيلة: عار وذل وخزي وعقاب.

(١) صور وخواطر (ص: ٢١٩) لعلي بن مصطفىٰ الطنطاوي (المتوفىٰ: ١٤٢٠هـ).

الخوف من الله من أسباب التوفيق

۞ معالم على طريق التوفيق البكاء من خشية الله :

البكاء من خشية الله دليلٌ علىٰ إيمان العبد وخوفه من الله، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾﴾ [سورة الإسراء:١٠٧-١٠٩]، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [سورة مريم:٥٨].

وقد أثنىٰ الله علىٰ المؤمنين أصحاب القلوب الرقيقة، الذين لا يملكون أنفسهم من الدمع عند سماعِ آياتِ الرَّحمنِ، أو خوفِ فواتِ عملٍ صالحٍ يُحِبُّونَهُ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [سورة المائدة:٨٣]، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [سورة التوبة:٩٢].

والبكاء من خشية الله سببٌ للاستظلال بعرش الرحمن، روىٰ البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ - ذَكَرَ مِنْهُم: - وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ**»(١).

والبكاء من خشية الله من أحب الأعمال إلىٰ الله، روىٰ الترمذي في سننه من حديث أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَىٰ اللهِ مِنْ قَطْرَتَيْنِ وَأَثَرَيْنِ، قَطْرَةٌ مِنْ دُمُوعٍ فِي خَشْيَةِ اللهِ، وَقَطْرَةُ دَمٍ تُهْرَاقُ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَأَمَّا الْأَثَرَانِ فَأَثَرٌ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَأَثَرٌ فِي فَرِيضَةٍ مِنْ فَرَائِضِ اللهِ**»(٢).

والبكاء من خشية الله سببٌ للنجاة، روىٰ الترمذي في سننه من حديث عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلت يا رسول الله ما النجاة؟ قال: «**أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ، وَابْكِ عَلَىٰ خَطِيئَتِكَ**»(٣).

والبكاء من خشية الله من أسباب التحريم علىٰ النار، روىٰ الترمذي في سننه من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لَا يَلِجُ النَّارَ رَجُلٌ بَكَىٰ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ، حَتَّىٰ يَعُودَ اللَّبَنُ فِي الضَّرْعِ، وَلَا يَجْتَمِعُ غُبَارٌ فِي سَبِيلِ اللهِ وَدُخَانُ**

---

(١) رواه البخاري (٦٦٠) ومسلم (١٠٣١).

(٢) رواه الترمذي (١٦٦٩) وحسنه الالباني في مشكاة المصابيح (٣٨٣٧).

(٣) رواه الترمذي (٢٤٠٦) وأحمد (١٧٤٥٢) والبيهقي في شعب الإيمان (٧٨٤) وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٣٩٢٩).

جَهَنَّمَ»(١). فقوله: «لاَ يَلِجُ»: أي لا يدخل، «حَتَّىٰ يَعُودَ اللَّبَنُ فِي الضَّرْعِ»: كناية عن استحالة ذلك.

۞ من أسباب البكاء من خشية الله:

١- ذكر الموت: روىٰ الترمذي في سننه من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَادِمِ اللَّذَّاتِ - يعني الْمَوْتَ -»(٢). فإذا ذكر المؤمن الموت رقَّ قلبه، ودمعت عينه، وزهد في دنياه.

٢- قراءة القرآن بتدبر، والاستماع إليه بخشوع: روىٰ أبو داود في سننه من حديث عبد الله بن الشِّخِّير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «رَأَيتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي وَفِي صَدْرِهِ أَزِيزٌ كَأَزِيزِ الرَّحَىٰ مِنَ الْبُكَاءِ».

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اقْرَأْ عَلَيَّ القُرآنَ»، قَالَ: قُلْتُ: يا رَسُولَ اللهِ! أَقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟ قَالَ: «إِنِّي أَشْتَهِي أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي»، فَقَرَأْتُ النِّسَاءَ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغْتُ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [سورة النساء:٤١] رَفَعْتُ رَأْسِي، أَوْ غَمَزَنِي رَجُلٌ إِلَىٰ جَنْبِي فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَرَأَيْتُ دُمُوعَهُ تَسِيلُ (٣).

---

(١) رواه الترمذي (١٦٣٣) والنسائي (٣١٠٨) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٧٧٨ - ٢٨٨٢).

(٢) رواه الترمذي (٢٣٠٧) وأحمد (٧٩٢٥) والنسائي (١٨٢٤) وابن ماجه (٤٢٥٨) وابن حبان (٢٩٩٢) والبيهقي غي شعب الإيمان (٨٠٢) وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٢١٠).

(٣) رواه البخاري (٤٥٨٣) ومسلم (٨٠٠) واللفظ له.

٣- زيارة القبور، وتذكر الآخرة: روىٰ الحاكم في المستدرك من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ أَلَا فَزُورُوهَا، فَإِنَّهُ يَرِقُّ القَلْبُ، وتَدْمَعُ العَينُ، وَتُذَكِّرُ الْآخِرَةَ، وَلَا تَقُولُوا هُجْرًا**»(١).

وروىٰ ابن ماجه في سننه من حديث البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي جِنَازَةٍ، فَجَلَسَ عَلَىٰ شَفِيرِ الْقَبْرِ، فَبَكَىٰ حَتَّىٰ بَلَّ الثَّرَىٰ، ثُمَّ قَالَ: «**يَا إِخْوَانِي لِمِثْلِ هَذَا فَأَعِدُّوا**»(٢).

فإذا كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يبكي حتىٰ تبل دموعه الثرىٰ وهو سيد الأولين والآخرين، المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فكيف بنا نحن المذنبين المقصرين؟ نسأل الله تعالىٰ أن يعاملنا بعفوه ولطفه.

وروىٰ الترمذي في سننه من حديث هَانِئٍ مَوْلَىٰ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كَانَ عُثْمَانُ إِذَا وَقَفَ عَلَىٰ قَبْرٍ بَكَىٰ حَتَّىٰ يَبُلَّ لِحْيَتَهُ، فَقِيلَ لَهُ: تُذْكَرُ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ فَلَا تَبْكِي وَتَبْكِي مِنْ هَذَا؟ فَقَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إِنَّ الْقَبْرَ أَوَّلُ مَنْزِلٍ مِنْ مَنَازِلِ الْآخِرَةِ، فَإِنْ نَجَا مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ، وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ مِنْهُ**»، قَالَ: وسَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**مَا رَأَيْتُ مَنْظَرًا قَطُّ إِلَّا وَالْقَبْرُ أَفْظَعُ مِنْهُ**»(٣).

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (١٣٩٣) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٥٨٤).

(٢) رواه ابن ماجه (٤١٩٥) وأحمد (١٨٦٠١) والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٠٦٣) وحسنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٤/ ٣٤٥).

(٣) رواه الترمذي (٢٣٠٨) وأحمد (٤٥٤) وابن ماجه (٤٢٦٧) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٥٦٢٣).

٤- التباكي: وهو منزلة دون البكاء وهو مجاهدة النفس في البكاء، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد ذكره أنواع البكاء: (وما كان منه مستدعًىٰ متكلفًا وهو التباكي، وهو نوعان: محمود ومذموم، فالمحمود أن يستجلب لرقة القلب ولخشية الله لا للرياء والسمعة. والمذموم أن يجتلب لأجل الخلق، ، وقد قال عمر بن الخطاب للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقد رآه يبكي هو وأبو بكر في شأن أسارىٰ بدر: «أَخْبِرْنِي مِنْ أَيِّ شَيْءٍ تَبْكِي أَنْتَ وَصَاحِبُكَ؟ فَإِنْ وَجَدْتُ بُكَاءً بَكَيْتُ وَإِنْ لَمْ أَجِدْ بُكَاءً تَبَاكَيْتُ لِبُكَائِكُمَا»، وَلَمْ يُنْكِرْ عَلَيهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»(١))(٢).

ولعل من أعظم أسباب جفاف العين، وعدم البكاء من خشية الله قسوة القلب، وما ضُرِبَ عبدٌ بعقوبةٍ أعظم من قسوة القلب، بل ما خُلِقَتِ النار إلا لإذابة القلوب القاسية(٣)، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة الزمر: ٢٢].

فعلىٰ العبد أن يُذيب هذه القسوة بذكر الله، وزيارة القبور، وتذكر الموت والآخرة وأهوالها(٤).

الخوف من الله تعالىٰ واجب، بل هو من أوجب الواجبات، ومن لم يخف الله فليس بمؤمن.

---

(١) رواه مسلم (١٧٦٣).

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد (١/ ١٧٨).

(٣) انظر رسالة أخينا الشيخ عبد الهادي وهبي «البكاء من خشية الله»، فقد أجاد وأفاد.

(٤) معالم علىٰ طريق التوفيق الخوف من الله لفيصل بن سعيد شهوان الزهراني.

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٧٥﴾ [سورة آل عمران:١٧٥] وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣﴾ [سورة التوبة:١٣].

وقال تعالى: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ٤٦﴾ [سورة الرحمن:٤٦]. وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١٢﴾ [سورة الملك:١٢]، وقال تعالى - في وصف حال الأنبياء -: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ٩٠﴾ [سورة الأنبياء:٩٠].

والعبادة الشرعية عند أهل السنَّة تشمل المحبة والتعظيم، والمحبة تولِّد الرجاء، والتعظيم يولِّد الخوف.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (الخوف: أحد أركان الإيمان والإحسان الثلاثة التي عليها مدار مقامات السالكين جميعها، وهي: الخوف، والرجاءُ، والمحبة. وانتفاءُ الإيمان عند انتفاء الخوف: انتفاءٌ للمشروط عند انتفاءِ شرطه، وانتفاءُ الخوف عند انتفاءِ الإيمان: انتفاءٌ للمعلول عند انتفاءِ علته.

فالخوف من لوازم الإيمان وموجباته؛ فلا يتخلف عنه، وقد أثنى سبحانه على أقرب عباده إليه بالخوف منه، فقال عن أنبيائه بعد أن أثنى عليهم ومدحهم: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ٩٠﴾ [سورة الأنبياء:٩٠]) ا.هـ(١).

(١) طريق الهجرتين (ص٢٨٢).

التلائم بين التوفيق وعلو الهمة وصدق العزيمة

الهِمَّة وصِدْق العزيمة: علىٰ قدر نية العَبْد وهمته وَمرَاده ورغبته يكون توفيقه سُبْحَانَهُ وإعانته، والخذلان ينزل عَلَيْه علىٰ حسب ذلك، وقد قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ﴾ [سورة النساء: ٣٥] عل النية سبب التوفيق.

قال ابن القيم: (سعادة العبد في صدق العزيمة وصدق الفعل؛ فصدق العزيمة: جمعها وجزمها وعدم التردد فيها، بل تكون عزيمة لا يشوبها تردد ولا تلوم. فإذا صدقت عزيمته بقي عليه صدق الفعل، وهو استفراغ الوسع وبذل الجهد فيه، وأن لا يتخلف عنه بشيء من ظاهره وباطنه. فعزيمة القصد تمنعه من ضعف الإرادة والهمة، وصدق الفعل يمنعه من الكسل والفتور. ومن صدق الله في جميع أموره صنع الله له فوق ما يصنع لغيره. وهذا الصدق معنىٰ يلتئم من صحة الإخلاص وصدق التوكل؛ فأصدق الناس من صح إخلاصه وتوكله)[1].

(١) الفوائد لابن القيم (ص: ١٨٦).

معالم على طريق التوفيق الزوجة الصالحة

ومن معالم التوفيق والسعادة في الحياة الدنيا أن يوفقك الله لزوجة صالحة، تعينك علىٰ أمر دينك ودنياك، رفيقة دربك، ذات خُلق كريم، تسُرُه إذا نظر إليها، وتحفظه في نفسها وماله وذريته، محسنةٌ في تربية أبنائها، فالمرأة في هذا الزمن هي الحِصن الحصين للأسرة المسلمة إذا وفقها ربُها لحماية بيتها.

والمرأة الموفقة تعين زوجها وأبناءها علىٰ فعل الفضائل والطاعات وترك المنكرات والزلات.

في زمن يحاولون تكسير الحواجز والجسور من أجل إخراجها من حصنها الحصين ! فلتعرف الموفقة ما يُدار حولها.

إن المرأة الموفقة هي التي تملأ بيتها حُبًّا ورحمة ومودة وسعادة وصفاء وأُنسًا وسكنًا سعيدًا، كأنه جنة من جنان الدنيا، ولا ينال ذلك إلا موفق سعيد.

قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أربع من السعادة: المرأة الصالحة، والمسكن الواسع، والجار الصالح، والمركب الهنيء**»(١).

(١) رواه ابن حبان (٤٠٣٢) والبيهقي في شعب الإيمان (٩١٠٩) وأبو نعيم في الحلية (٨/ ٣٨٨)وصححه الألباني في صحيح الجامع (٨٨٧ - ٤٣٦)

وصدق الله: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [سورة الروم: ٢١].

لذلك قالوا: إن ثلاثية الزواج الناجح الموفق السعيد يرتكز علىٰ أمور ثلاثة:

١- السكن.

٢- المودة.

٣- الرحمة.

فبيوت الموفقين تملؤها المودة والرحمة والسكن والرفق والاحترام والتقدير والتوفيق لكل خير، وقيام ذلك كله بفضل الله أولًا، ثم بذلك القلب الذي ينبض في تلك الزوجة، التي تستطيع أن تجعل من بيتها الصغير قصرًا من السعادة والحب والحنان والعطاء.

يقول الشيخ راشد الشهري وفقه الله: (الزوجة الصالحة مؤدية لحقوق ربها، متحببة لزوجها، محتسبة في تربية أولادها، حافظة لأسرار بيتها، تملأ البيت فرحًا وسرورًا، وتتطلع إلىٰ ثواب خالقها).

وصدق رسولنا الكريم الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين قال: «**قلب صادق، ولسان ذاكر، وزوجة صالحة تعينك علىٰ أمر دنياك ودينك، خير ما اكتنز الناس**»(١).

(١) رواه الطبراني في الكبير (٧٨٢٨) والبيهقي في شعب الإيمان (٤١١٦) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٤٠٩).

والموفق دائما قد غرس في قلبه بيقين وصدق وحب ووفاء قول رسولنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي**»(١).

وهو القائل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**دينار أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقبة، ودينار تصدقت به علىٰ مسكين، ودينار أنفقته علىٰ أهلك، أعظمها أجرًا الذي أنفقته علىٰ أهلك**»(٢).

الزوجة الموفقة قدوتها في حياتها: الطاهرة خديجة بنت خويلد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أول قلب احتضن نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حبًا وبرًا وعطاءً.

عاشت معه الأمل والألم، منذ فجر الرسالة المحمدية، تؤيده وتعينه وتنصره بكل معاني النصر والتأييد، فماذا كان جزاء تلك الطاهرة؟

جاء في الحديث الصحيح: «**وبشِّرها ببيت في الجنَّة من قصب** - أي اللؤلؤ المجوف - **لا صخب فيه ولا نصب**»(٣).

قال السهيلي رَحِمَهُ اللَّهُ: (إنما بشرها ببيت في الجنة؛ لأنها لم ترفع صوتها علىٰ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم تتعبه يومًا من الدهر، فلم تصخب عليه يومًا، ولا آذته أبدًا)(٤) ا.هـ

---

(١) رواه الترمذي (٣٨٩٥) وابن ماجه (١٩٧٧) والبيهقي في شعب الإيمان (٨٣٤٤) والدارمي (٢٣٠٦) وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٣٢٥٢) وصحيح الجامع (٣٣١٤).

(٢) رواه مسلم (٩٩٥).

(٣) رواه البخاري (٣٨٢٠) ومسلم (٢٤٣٣).

(٤) الروض الأنف (٢/ ٤٢٦) لأبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي (المتوفىٰ: ٥٨١ هـ).

والجزاء من جنس العمل، هكذا فلتكن النساء، بل تأمل هذا الموقف النبوي بمشاعرك وعواطفك.

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: ما غرتُ على نساء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا على خديجة وإني لم أُدركها، قالت: وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا ذبح الشاة فيقول: «**أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة**»، قالت: فأغضبته يوما فقلت: خديجة فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إني قد رُزقت حبّها**»(١).

وتأمل معي هذا الموقف الذي يعبر عن الحب والوفاء لما ماتت امرأة أبي ربيعة الفقيه، دفنها ونفض يديه، ثم رجع إلى داره، فحوقل واسترجع، وبكت عيناه! ثم قال يخاطب نفسه: الآن ماتت الدار أيضا يا أبا خالد.

نعم: إن البيت يحيا بروح المرأة التي تتحرك بداخله، وتشيع فيه معنى لا يقدر عليه غيرها.

إضاءة على الطريق:

بيتك بيتك بيتك. أيتها الموفقة هو سعادتك، بل هو جنتك في الدنيا.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) رواه مسلم (٢٤٣٥).

فهرس

المقدمة ٥
التوفيق التعريف والأسباب ٩
التوفيق بيد الله وحده ١١
التوفيق مطلب الجميع ١٥
أساس التوفيق ١٦
علامات توفيق الله للعبد ١٨
أسباب الخذلان وعدم التوفيق ١٩
من أقوال السلف في التوفيق ٢٠
التوفيق شيء استثنائي من الله للعبد السالك ٢١
سؤال الله عَزَّوَجَلَّ التوفيق ٢٢
مفاتيح التوفيق ٢٣
مدرسة التوفيق ٢٧
من التوفيق والسعادة تحري ساعات الإجابة ٣١
معالم علىٰ طريق التوفيق بر الوالدين ٣٢
ثلاث طرق تنال بها التوفيق والنجاح في عملك ٣٥
الطريق الأولىٰ: الافتقار إلىٰ الله وطلب العون منه ٣٥
الطريق الثانية: عدم الاغترار بالعقل والذكاء ٣٦
الطريقة الثالثة: الهِمَّة وصِدْق العزيمة ٣٧

التوبة مفتاح التوفيق والسعادة..... ٣٨
من أسباب عدم التوفيق في الحياة..... ٤٣
التوفيق ضرورة حياتية..... ٤٥
أجمع الأمور التي يُستجلب بها التوفيق..... ٤٦
الأسباب الرئيسة للتوفيق..... ٤٧
من أقوال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ..... ٥١
من علامات وأثار التوفيق..... ٥٢
وللتوفيق علامات تدل عليه..... ٥٢
أسباب تيسير العبادة والشعور بلذتها..... ٥٨
الوسائِلُ المُعينةُ علىٰ التَّخَلُّصِ مِنَ اليأسِ والقُنوطِ والإحباطِ..... ٦٥
طرق النجاح والتوفيق في الحياة..... ٧٩
١- الإيمان والعمل الصالح..... ٧٩
٢- الإحسان إلىٰ الخلق بالقول والفعل وأنواع المعروف..... ٨١
٣- ومن أسباب دفع القلق الناشئ عن توتر الأعصاب، واشتغال القلب ببعض المكدرات..... ٨١
٤- ومما يُدفع به الهم والقلق اجتماع الفكر كله علىٰ الاهتمام بعمل اليوم الحاضر . ٨١
٥- ومن أكبر الأسباب لانشراح الصدر وطمأنينته الإكثار من ذكر الله..... ٨٣
٦- ومن الأسباب الموجبة للسرور وزوال الهم والغم، السعي في إزالة الأسباب الجالبة للهموم..... ٨٣
وقد لخص ابن القيم خمسة عشر نوعًا من الدواء يذهب الله بها الهم والحزن..... ٨٦

تعليم العقيدة وتعلمها من أسباب التوفيق ٨٨
معالم علىٰ طريق التوفيق الصلاة نور..... ٩٠
إضاءة آية التوفيق..... ٩٥
التوفيق هبة من الله ٩٧
الفرق بين الرزق والتوفيق..... ٩٩
شرح حديث (ولا تكلني إلىٰ نفسي طرفة عين) ١٠٠
شرح دعاء (يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث) ١٠١
ما معنىٰ طرفة عين؟ ١٠٣
التوكل علىٰ الله..... ١٠٥
إرادة الآخرة ١٠٥
التوبة من المعاصي ١٠٦
نفع الناس وقضاء حوائجهم ١٠٦
من علامات التوفيق الاهتمام بالقرآن الكريم ١٠٧
من علامات التوفيق القيام بشعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ١٠٧
معالم علىٰ طريق التوفيق العلم نور..... ١٠٨
من توفيق الله للعبد لزوم الإستغفار..... ١١١
معالم علىٰ طريق التوفيق وظيفة العمر..... ١١٧
تأملوا وتفكروا !! ١٢٠
قبل الانطلاق..... ١٢٤
معالم علىٰ طريق التوفيق أولا القرآن الكريم ١٢٦

معالم علىٰ طريق التوفيق ثانيًا السنة نجاة ١٢٩
معالم علىٰ طريق التوفيق الوضوء ١٣٣
معالم علىٰ طريق التوفيق ثالثا الدعاء ١٣٦
معالم علىٰ طريق التوفيق رابعًا نعمة المال ١٤١
إضاءة علىٰ الطريق معالم علىٰ طريق التوفيق طال عمره وحسن عمله ١٤٤
معالم علىٰ طريق التوفيق مزامير آل داود ١٤٧
معالم علىٰ طريق التوفيق الذرية الطيبة ١٥٠
معالم علىٰ طريق التوفيق الكسب الحلال ١٥٢
معالم علىٰ طريق التوفيق القبول في الأرض ١٥٦
معالم علىٰ طريق التوفيق دعاة الفضيلة ١٥٩
الخوف من الله من أسباب التوفيق ١٦٢
معالم علىٰ طريق التوفيق البكاء من خشية الله ١٦٢
من أسباب البكاء من خشية الله ١٦٤
التلائم بين التوفيق وعلو الهمة وصدق العزيمة ١٦٨
معالم علىٰ طريق التوفيق الزوجة الصالحة ١٦٩
فهرس ١٧٣